عبد الباقي يوسف

بلادٌ ليست كالبِلاد

روايــة

الطبعة الثانية
منشورات دار شلير - سورية - قامشلي 2022

استفاق ألماظ من لفائف نومه العميق ببطءٍ شديد وهدوءٍ تام دون أي شعورٍ بالفَزَع، انفرَجَتْ عيناه بلطفٍ للحظات، ثم ما لبثت الرموش أن تشابكت مع الرموش لتعيد حدقتَي العينين إلى طواف مملكة الغموض، ثم بعد هنيهةٍ عادت الرموش تتباعد عن بعضها مسافة دهرٍ لتنفتح حدقتا العينَين برفقٍ وتؤدةٍ، وأعضاؤه تتذوّق لذّة الاستلقاء على الظهر بمفاصل مفكّكة مستكينة في قاع الاسترخاء البدني والروحي.

راوده إحساسٌ في لحظاتٍ أن جسده وردة بدأت تتفتَّح أوراقُها مع بدء انتشار بزوغ فجرٍ ربيعيٍ حافل على ظلمة الشجرة التي تنتصب بشموخٍ في مجد علوها.
أزاح الشرشف الحريري الشفّاف الزهري اللون عن جسده بالكامل، فبدأت مسامات الجسد تتلقّى نفحات نسيمٍ عليلٍ كأنها انبثقت من حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهو مُتّكئٌ بثيابٍ خُضرٍ من سندسٍ وإستبرق على أريكةٍ من أرائك جِنانِ خلدٍ تجري من تحتها عذوبةُ أنهارٍ لا تشوبها شائبة.

بدأت أساريره تتفاعل بأنسٍ مع نَفَحات النَسيم الذي يتداعى إلى رعشات الروح والجسد في بهاء ألق هذه اللحظات الاستثنائية النادرة.
أحس بأن مفاصل عموده الفقري تستلذ بأخذ أعظم جرعات استرخائية ذهبية، فتُعانق أساورُ اللّذةِ خصلاتَ ذهبِ الاسترخاءِ ليُقدّما هديتهما الثمينة إلى سائر مناخ النفس المنتشية في قِمّة السطح الذي يستلقي عليه مع زوجته وأطفاله الثلاثة.

خَمسُ سنواتٍ مضت منذ أن اتّخذ مع زوجته قرارهما الحاسم بالنومِ على السطح في فصل الصيف الذي يكون عادة شديد الحرارة، مقارنةً بالشتاء الذي يكون شديد البرودة، والربيع الذي يكون غني الخضرة،

والخريف الذي يكون شديد هبوب الرياح التي لا تدع ورقةً على غُصنِ شجرةٍ إلا وتطرحها أرضاً وتدفع بها على شكل ركامٍ إلى حيث الأودية والأنهار مُعاهِدةً الشجرةَ في ذاتِ الحينِ بثوبٍ عيديٍ مُزركشٍ جديدٍ لم تر له مثيلاً في أي عيد مضى، هامسةً بأنها سوف تخلع عنها ثوب السنة الماضية الذي غدا بالياً واكتظ بالغُبار.
ثم يهمس لها أن الشتاء ينتظر ليقدُمَ بعد ذلك ويَغسل سائر بدنها بعذوبة مَطَرِهِ الذهبي، والربيعُ منهمك الآن بحياكةِ ثوبها المزركش الأنيق الذي يليق بقوامها الممشوق، ويجعلها عروساً مُتجّددة تستقطب بحلّتها أنظار وحواس كل مارٍ بجوارها من أنسٍ، وجنٍ، وطيرٍ، ودابّةٍ، ونباتٍ، وجماد.
يهتفُ الخريفُ لها بحنانٍ إنه في عجلةٍ من أمره لأن الشتاء والربيع ينتظران كي يكرماها، وعليها أن تتشجّع وتتجاوب كي يحتفيا بها، فتخلعِ الشجرةُ بحياءٍ شديدٍ آخر ما تبقّى على بَدَنها من قطع ثيابٍ داخليةٍ قطعةً قطعةً حتى تلبث بكامل عريها وتخلع آخر قطعة ثوب.

تُسلّم عريها بخجل وتَرَدُد عذراءً أمانةً لأنامله الأمينة، يَتسلّم بهاءَ الجسد، يتركه لديه سبعة أيام، ينفخ عليه وهو يتأمّل تخلّص الجسد من آخر ذرة غبار ليستوي في نضج عريه، ثم حينئذ ما يلبث أن يُسلّم الأمانة إلى انتظار الشتاء الذي يَتسلّمها تحت جنح رذاذه ويشرع في غسل بَدَنها عضواً عضواً بِفَيضِ مَطَرِهِ الغزير حتى يُنظّف عنها آخر ذرة غبار، فيرسل آنئذ الربيع زخات خفيفة من رذاذه حتى يتخلّص الجسد من آثار الغبار، ثم ما يلبث أن يرسل نفحات دافئة من خصلات شعر شمسه، فتُنشّف أعضاءها عضواً عضواً بدفء، ثم ما يلبث الربيع آنئذ أن يبدأ في إلباسِها الثياب التي حاكها على تفصيل جسدها قطعة قطعة بادئاً بالقطع الداخلية الصغيرة، ومنتهياً بآخر لمسات الزينة من أساور، وحلق، وخواتم، وعقود الجواهر، واللآلئ الثمينة، ثم يرش عليها نفحة من عطره.

تأخذ الشجرة المباركة أوج حلّة زينتها، وتستوي شامخة في عرش مقامها، فلا ترى البلابل موضعاً أكثر جمالاً وقدراً منها كي تقضي فيه أيام شهرعسلها، فتتهافت إلى ربوعها الخلاّبة من كل صوب وحدب

أزواجاً أزواجاً.. فُرادى فُرادى، فتبني لها أعشاشاً، وتتزاوج، ويطول بها المقام حتى تفرخ في شدو، وزغاريد، وغزل، ومشاكسات، وحالات حب جديدة بين الجوار؛ حيث تفرّ عصفورة عاشقة تحت جنح رعشات سكون الليل إلى شجرة جارتها، ويفرّ عصفورٌ عاشق إلى شجرة جارته، يلتقيان خلسة على حافة غصن خفي، يبث أحدهما شوقه ولواعج حنينه للآخر تحت حراسة مشدّدة من وردة.
يمرّ المارّ، فلا يكون له إلاّ أن يقف ليُمتّع بصره بالنظر الذي يشرح له صدره، ويرفع عنه وزره، وهو يسبّح فالق الإصباح على سحر هيأتها، وكمال بهائها، ونضوج ثمرها، وطيب ريحها، وعذوبة سَكَنتها.
خمس سنوات وهو يكتشف مزايا النوم على السطح في تلك الإطلالة المفتوحة في جميع الأوقات:
بهاء إطلالة أول المساء،
لمسات إطلالة سكون الليل،
سحرية إطلالة شروق الشمس،
عبق إطلالة نفحات الصباح.

كل إطلالة تتمتع بمناظر جديدة تمدّ النفس بمشاعر الحيوية والتجدّد.
كان في الماضي حين يقبل الصيف، ينام مع زوجته على سرير صغير يتسع لجسديهما بالكاد في فناء الدار، وحين ولدت ابنته /ميرهان/ بعد خمس سنوات من الزواج اضطر أن يبتاع سريراً حديدياً كبير الحجم كي يتسع لنومهم معاً في الحوش.

عندما حلّ الشتاء، أحس بأن مساحة الحوش تضيق بالسرير الكبير والمكيّف المائي الذي لم يعد لهما لزوم في الحوش, فكانت فكرة أخذهما إلى السطح ووضعهما إلى جانب السرير القديم.
لبث الأمر على ما هو عليه حيث ينزلهما معاً في الصيف، ويصعدهما في الشتاء حتى ولد ابنه /نجد/ بعد ثلاث سنوات، وكانت ولادّة قاسية جعلت /تقى/ تمضي ثلاثة أيام في المشفى حتى استطاعت أن تقف على قدميها، وسمحت لها الطبيبة المولدة أن تخرج إلى بيتها.

بعد يومين في البيت تعرض نجد لوعكة، فنصح طبيب الأطفال أن يتعالج في عناية مشددة في المشفى، حينها اضطرت تُقى أن تقضي عشرة أيام أخرى برفقة ابنها الوليد في مشفى الأطفال بسبب سوء تدهور وضعه الصحي.

يومها اكتشف ألماظ كم أن مشاعر الأمومة تغلب مشاعر الأبوة، حدث ذلك عندما اقترح عليها أن يبقى الطفل في عناية المشفى، وترتاح هي في البيت، ثم يقوما بزيارته ريثما يتماثل للشفاء، رفضت ذلك بشكل قاطع قائلة وهي تجحظ عينيها وتقطب حاجبيها: كيف تتخيّل يا رجل أنني سأنام وابني ملقى على سرير المرض دون أن أكون بجانب رأسه، أمدّ يدي بين لحظة وأخرى إلى جبهته؟

كيف تتخيّل أنه سيرف لي جفن حتى وأنا بجانبه، سوف أبقى يقظة أحرسه، وبين لحظة وأخرى أمدّ يدي إلى جبهته، أرضعه، أهدهده عندما يبكي، أبدّل ثيابه الداخلية بين ساعة وأخرى.

عندها أدرك أن الإنسان هو ابن أمه أكثر مما هو ابن أبيه، ولأمه فيه أكثر مما فيه لأبيه.
تبيّنتْ له هذه الحقيقة عندما استطاع أن يترك ابنه مريضاً في المشفى وهو بأمس الحاجة إلى لمساته الأبوية، عاد إلى البيت ونام كأن شيئاً لم يكن، في الوقت الذي رفضتْ فيه أمه المريضة التي هي بأمس الحاجة إلى الراحة والمكوث في البيت أن تترك وليدها ليس على سرير المرض بعيداً عنها فقط، بل رفضت أن تنام تاركة إياه نائماً نوم مريض حتى وهي بجانبه.

إضافة إلى ذلك أنه خطرت له فكرة أن يتركاه، في حين لم تخطر لها هذه الفكرة، وعندما قررتْ البقاء؛ لم يخطر له أن يقرر البقاء معهما، وقد تأكدت له حقيقة أخرى في تلك اللحظات وهي أن الأم تكفي طفلها وتزيد، بيد أن الأب لا يكفي طفله ولا يزيد، ويمكن لأي طفل في العالم أن يكتفي بأمه، بيد أنه لا يكتفي بأبيه، ولذلك فإن الشرائع والقوانين

تميل إلى بقاء الطفل في حضانة أمه عند حدوث خلاف أو انفصال ريثما يتجاوز مرحلة الطفولة، وعندما يكبر، سوف يميل إلى أمه أكثر من ميله لأبيه بشكل تلقائي، لأنه يلمس عند أمه لمسات الحنان التي يحتاجها، أكثر مما يلمسها لدى أبيه.

لذلك يواجه الطفل أكبر معضلة عندما يرى أباه يعتدي بالضرب أو الإهانة على أمه دون أن يستطيع منعه من ذلك، يكون الأمر بالنسبة إليه في تلك اللحظات أسوأ من أن يتعرض هو للضرب، ذلك أن التي يُعتدى عليها هي مصدر الأمان والحب والعطاء والتضحية بالنسبة إليه.
إنها مصدر شمس الحياة برمتها وهنا تنشأ لديه بوادر اهترازات نفسية عقيمة، فيظهر ذلك على سلوكياته، بحيث يحطّم ألعابه، أو ما يقع في يدَيه، يصرخ بعصبية، يمارس حدّة العناد، أو تظهر بوادر القسوة على سمات وجهه.

إنه يفعل أي شيء كي يسبب لهما إزعاجاً، مثلما سبّبا له إزعاجاً، وقد يؤدي ذلك إلى ممارسة العنف والإهانة على الطفل ذاته من قِبل أبوَيه لإسكاته بالقوة مما يسبب له انتكاسات عصبية حادة وهو يعجز عن الرد والدفاع في الحالتين، ويتحمّلهما على مضض، مما يترك أثراً، ويشكل منعطفاً بالغ الخطورة على مستقبله السلوكي.

إنه طفل ملول، غامض، مهزوم، مرتعب، لا يشعر بثقة، يفقد الشعور بالأمان، لا يعرف عند أي كلمة يتلقى إهانة أو صفعة.
طفل مذعورمرتعب على الدوام، يفقد الشعور بالمسؤولية والانتماء، يمشي بين رفاقه منكسراً كما لو أنه شبح، يفتقد طلاقة وتلقائية الطفولة، إنه طفل بيد أنه يعيش خارج فضاء طفولته.

كلّما تحدّث بكلمة لاقى صفعة،
كلما بدرت منه حركة لاقى إهانة، كلّما نظر نظرة لاقى تهديداً، كلما طلب مطلباً قوبل باستهزاء من أبوَيه، وقد ينتهي في نهاية المطاف أنه يعاقب نفسه، ويعاقب فئاتٍ من المجتمع بطريقة مباشرة، أوغير مباشرة بشكل علني أو بشكل مُتوارٍ.

إنه شخص يقف على قدمَين غير سويتين، ينظر بعينين غير سويتين.

ضبابي غامض مهتزٌّ من الداخل، عانى أهوالاً في نشأته جعلته يشعر بحالة عداء لأشخاص مفترضين، يسعى إلى صناعة أعداء حقيقيين له كي يدخل في حالة حرب حقيقية معهم وينتصرَعليهم كرد فعل على ما عانى من هزائم وتوبيخ في الطفولة.

إنه شخص شيزوفريني وصولي فلهوي، يتنازل عن أية قيمة إنسانية من أجل أن يبلغ مواقع هامة، ويملك استعداداً أن ينقلب حتى على معلّمه الذي عيّنَه في ذاك الموقع، كي يغدو هو معلّماً، أو كي يحقق منافع يراها مجدية بالنسبة إلى برنامجه في شن الحرب على الآخرين .
إنه كائن انتقامي، عدواني محارِب بامتياز يمتهن أدواته بشكل جيد، بيد أنه في نهاية المطاف لا يملك إلاّ أن يصوّب هذه الأدوات بشكل بالغ الدقة والقسوة إلى نفسه مهما تدرّجت به المراتب.

رأى ألماظ أنه إزاءَ منعطفٍ بالغ الخطورة في مسيرة حياته، إنه يربي طفلين عليه أن يحسن ويجيد تربيتهما، ويهيئهما كي يقدّما شيئاً مجدياً ذا قيمة حقيقية للمجتمع، ليكونا بطلين يصنعان لهما تاريخاً.
بدأ يجلب لهما كتب الأطفال، وبدوره يقرأ آثار أعلام أهل الاختصاص المركّزة في تربية الطفل ذاته، فيكتشف يوماً إثر يوم برفقة /تُقى/ لمسات إنسانية هامة، وميزات خاصة بعالم الطفولة الذهبي.
يقول لـ /تُقى/ وهما يتأملاّن شقاوة طفليهما:

عندما ينجب الأب طفلاً، عليه أن يدرك آنئذ بأنه تحوَّل إلى مربٍّ وأديب للطفل.
فتجيبه قائلة: عندما تنجب المرأة طفلاً، عليها أن تدرك جيداً بأنها تحوَّلت إلى مربية وأديبة أطفال.

مع حلول الصيف وبينما كان مع زوجته على السطح كي يهيئا السرير والمكيّف لإنزالهما بإعانة بعض الجوار إلى الحوش.

في تلك اللحظات الصباحية من يوم الجمعة قالت له زوجته وهي تجوب بنظرها الأسرّة المحجوبة بالستائر فوق الأسطح وكأنها تنظر إليها أول مرة: النوم على السطح يشرح النفس يا ألماظ.
شاركها النظر إلى جمالية الأسرّة المنتشرة على الأسطح وقال: معك حق يا تقى.
قالت: لا نحتاج سوى إلى سلّم حديدي، وارتفاع بالقرميد على دائر السطح.

عندها راوده شعور بالتردد في إنزال السرير، واكتفى بإنزال المكيّف.
في الأسبوع القادم ذهب إلى الحدّاد، وجلبه كي يأخذ المقاس ويخبره بتكلفة السلم الحديدي، ثم ذهب إلى البنّاء و استطاع أن يأخذ فكرة عن تكاليف هذه الإضافات إلى بيته.
بعد نحو أسبوعين آخرين رأى بأنه مستعد أن يتحمل هذه التكاليف، فشرع في تنفيذ الفكرة.
استغرق ذلك نحو عشرة أيام من العمل حتى أصبح السطح جاهزاً لاستقبالهما في هيئته الجديدة.
بدا الصعود إلى السطح بمثابة نصف نزهة بالنسبة لعائلته الصغيرة، حيث يمضون معظم الوقت عليه، تناول الفطور في الربيع، والمشاوي عند الغداء، وفي الشتاء الجلوس بدفء الشمس، وفي الصيف السهر والنوم.
فتقول تقى: أشعر بأننا امتلكنا مساحة أرض إضافية في بيتنا، ماذا كنا سنفعل دون السطح؟
يقول: حتى ميرهان ونجد يستنشقان هواءً صحياً نظيفاً يحتاجان إليه لنموهما الطبيعي.

اجتاحته ثورة الذكريات وهو مستلقٍ على ظهره في عمق العتمة منتظراً انتشارَ الضوء في الأفق.
امتدت كفه إلى جهاز هاتفه الخلوي لينظر إلى الساعة، ففوجئ بنفاد شحن البطارية.
أراد أن ينهض، بيد أن متعة الاستلقاء على الظهر في حالة استرخائية لذيذة جعلته يلبث على ما هو عليه متذكّرا بأن هذه الحالة لا تأتي دوماً،

فالاستيقاظ من نوم عميق يعقبه أحياناً فزع، أو تشوّش في الذهن، أو اضطراب في التفكير.

أحياناً تمضي عليه فترة يكون فيها مضطرباً، يعتريه الجزع كلّما أغمض عينيه ليغفو، فيجفل كأنه نصف نائمٍ ونصف يقظ، يترنح بين أن يسلم للنوم، أو يسلم لليقظة، حيث تجرّه أمواج النعاس إلى ضفاف مملكة النوم، وتدفعه هوجاء اليقظة إلى الفرار من الفراش، لكنه ما يزال يصر بأن لا شيء به ويستبعد مراجعة طبيب بهذا الشأن مهما كان اختصاصه متمتماً في قرارة نفسه: لأنني أدرى بحالتي من أي طبيب نفسي، ليس بوسع أمهر طبيب في العالم أن يقدّم لي شيئاً دون الاستناد إلى معلومات يحصل عليها مني، وإخضاعي لتكهناته من خلال ما أدلي به من إجابات.

عندما يريد أن يطبّق هذه الفكرة، ويخفف حالة الإرهاق عن كاهله، يقلّص عاداته الغذائية ويمارس رياضة المشي، يسترخي لمدة أسبوع في البيت يستمتع بالهدوء مع زوجته وطفليه.
عندئذ يشعر بلياقة حصان تندفع إلى بدنه، فيشعر بمتعة قوة البدن، وجمالية صفاء الذهن، يعتريه إحساس بروعة العزيمة، وبهاء الثقة بالنفس في ثنائية صحية نفسية بات على خبرة بها، ويرى أن ذلك ما يلزمه كي يعالج حالة الأرق التي تجتاحه، ولا يريد أن يتجاوز بها تلك الحدود.

أحياناً يغمض عينيه ويسلم للنوم دون تفكير وكأنه في حالة خدر، وأحياناً ينهض، يقوم بحركات عضلية عدّة دقائق، ثم يعود إلى الفراش، يشرد قليلاً حتى يسلم نهائياً لسطوة النعاس، ولا يشعر إلا بزوجته توقظه كي يتناول الفطور ويتهيأ للذهاب إلى مشغله، لأن موعد باص روضة الأطفال قد دنا، وسوف تخرج مع ميرهان ونجد، كون ميرهان تدرس في ذات المدرسة في صفها الثالث الابتدائي، ونجد مستمع في الصف الأول، بناء على وجود بند في المدرسة يُحق للمعلمات والمشرفات والعاملات بموجبه أن يصطحبن أبناءهن سواء إلى الروضة أو إلى المدرسة مجّانا ما دمن على رأس دوامهن.

قبل أن تتزوّج بسنتين تعيّنت في هذه المدرسة الخاصة وفق شهادة المعهد التربوي كونها لم تجد وظيفةً لدى إحدى المدارس العائدة لوزارة التربية، وعندما علمتْ عن مسابقةٍ لاختيار مشرفات في الروضة تقدّمت بوثائقها، وُعيّنتْ عند بدء العام الدراسي.
في الصباح الباكر يأتي سائق الباص إليها، ثم ينطلقان لحمل الأطفال من بيوتهم وفق البرنامج الذي تعدّه، والباص يخرج من شارع ليدخل شارعاً، يخرج من زقاق ليدخل زقاقاً، يخرج من حي ليدخل حياً، تستلم الأطفال من أيدي أمهاتهم، وتضع إشارة الصعود عند كل اسم، ثم تعيدهم إثر انتهاء الدوام، فتضع عند ذاك إشارة النزول عند تلك الأسماء في القائمة التي تجددها كل يوم آخذة في الاعتبار المستجدات التي تطرأ، حيث يمكن تعرّض البعض إلى مرض، أو انتقال سكني من حي إلى آخر، أو ترك الروضة بسبب السفر، وكذلك تدوّن ملاحظاتها وتضم القائمة إلى ملف العام الدراسي.

بعد سنتين من عملها وقعت عيناها على ألماظ لأول مرة في الحي، كان ذلك عندما وقفتْ أمام باب طفلة دون أن تخرج لتصعد الباص، فرنّت الجرس، ولم يفتح أحد الباب، حينها مدت يدها إلى جرس الباب المجاور ففتح ألماظ.
في تلك اللحظات راوده إحساس أنه في حلم، وأنه يقف أمام امرأة مميزة. لبث صامتا ينظر إلى رحابة وجهها الذي يشع نوراً.
أدرك وهو ينظر إليها أنه يقف أمام امرأة ليست كالنساء اللواتي يراهن كل يوم.
بعد لحظاتِ خجل قالت له: أعتذر منك يا سيدي، لدينا طالبة في هذا البيت المجاور لك، جئنا كي نأخذها إلى المدرسة، ولم يفتح لنا أحد الباب، نسألك إن كنت تعلم سبب ذلك حتى نبرر غياب الطفلة اليوم في سجلاتنا.

خرج ببيجامة النوم إلى الباب المغلق، وقبل أنّ يمدّ يده إلى الجرس، زلّت به قدمه، فسقط على الأرض، عندئذ نزل سائق الباص وصارا

يعتذران له، بينما احتقن وجه تُقى وهي تشعر بأنها تسبَّبَت له في ذلك، عند ذاك وبينما أخذ في النهوض وهو ينظر إلى حجم الوحل العالق ببيجامته، لاحت أم الطفلة مسرعةً في مدخل الشارع، وعندما لمحتها تُقى بادرت إلى تقديم اعتذارها الشديد على إزعاجها له في هذه الساعة الباكرة من الصباح وعلى ما وقع له بسببها.

وصلت المرأة حاملةً علبة صغيرة من عصير البرتقال مع قطعتَي شوكولاتة وكليجة مغلفة قائلة: البارحة نسي أبوها أن يشتري لها، اعذريني يا أختي، اضطررتُ أن أذهب إلى الدكان لأشتري، لأنها تبكي وترفض الخروج دون أن تحمل في حقيبتها شيئاً.
ثم شرَعت تفتح الباب بالمفتاح على عجل وهي تتمتم كأنها تحدّث نفسها: نبهت عليها ألّا تفتح الباب لأحد.. الحذر واجب يا أختي.
وما لبثت أن نادت: مباركية، مباركية، تعالي حبيبتي باصك وصل.
بعد قليل خرجت الطفلة، فتناولتها تُقى وقبّلتها على خدّها قائلة: تعالي أمّورة.. تعالي شطّورة.

لحظةَ انطلاق الباص راودها إحساس بأن سحراً رُشَّ على الطفلة، هذا السحر الذي امتدَّ إليها فغدت مسحورة.
لأول مرة أحست بمشاعر أن يكون الإنسان مسحوراً.
لم يعد يعنيها في العام كله شيء سوى متى تُعيد /مباركية/ إلى البيت لعلها تظفر بنظرة من ذاك الرجل الذي بدا سحرياً، يعرف كيف يرمي شباكه إلى المرأة فيأسرها ويهيمن على كل مشاعرها، ويصبح السيد الأوحد في حياتها.

هكذا منذ النظرة الأولى، يَقْلِبُ كل شيء رأساً على عقب، يُخلّ بكل الموازين، يجعلُ إعادةَ النظر في الترتيبات والقناعات الثابتة ممكنة.
إنها المرة الأولى التي تنظر فيها إلى رجل نظراتٍ مختلفة وهي التي تجاوزت سن العشرين بسنة واحدة.
كل الرجال كانوا سواء بالنسبة إليها، لا رجل يختلف عن رجل، لم يسبق لها أن نظرت إلى رجل وخطر لها أنه سوف يكون زوجاً لها، وهي التي لم ترَ رجالاً كثيرين في حياتها، وتستطيع أن تذكر الرجال

الذين تحدّثت معهم، وذلك بسبب تشدّد والدها في تربيته لأبنائه، فهو رجل صارم في تربيته لأولاده، قليل التسامح معهم، كثير العقاب والتوبيخ والترويع لهم.

يعمل موظفاً مسّاحاً في دائرة المساحة التابعة إلى السجل العقاري، متنقلاً بين الأرياف والقرى في مهمات مسح الأراضي الزراعية، وبيان حدود ملّاكي الأراضي من خلال ما يحمل من مخططات عقارية، وأجهزة القياس، ومحاضر التحديد، وهو يرتدي قبعة على رأسه ويباشر عمله بحزم مع زملائه عندما تنشب نزاعات بين مالكي الأراضي على بيان الحدود.
عندما بلغتْ تقى عامها السادس بدأت ترتدي الحجاب، تخرج محجبة ومنقبة مع أبيها عند الضرورة، وعندما يكون غائباً، يخرج معها أخوها جمعات الذي يعمل حوذياً في دكان صغير اشتراه له أبوه بعد حصولِه على الكفاءة وخروجِه من المدرسة، عند ذاك قال له أبوه : لن تصبح طبيباً، ولا وزيراً يا جمعات، بضاعتي وأنا أخْبَرُها، إذا وضعت عقلك في رأسك ستكون حوذياً ممتازاً تكسب لقمة عيشك بعرق جبينك، عندها سيكون لك محل، ويكون لك بيت وزوجة وأولاد.

كان جمعات إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره، وكان ثابت على معرفة بأحد الحوذيين من سكّان المدينة يملك دكاناً يمارس فيه مهنته.
ذات يوم ذهب إليه ثابت وطلب إليه أن يعمل ابنه لديه أجيراً، عندئذ رحّب الرجل به وقال: أمرك سيد ثابت، بكرة ينزل للشغل، تكرم شواربك.
عاد إلى البيت بفرح قائلاً لابنه: تطيع معلمك حتى تتعلم منه الكار، وبعدها تقول له: شكراً معلمي، السلام عليكم، أنت في حالك وأنا في حالي.

هزّ جمعات رأسه بالموافقة، فأضافت أمه: بكرة تصير صاحب دكان تكسب منه الذهب، يحتاجك الناس وهم يقولون: معلم جمعات.

قال ثابت: حتى الأطباء والقضاة سيحتاجون إليك، وعندما تدخل أية دائرة، أو أي محل لقضاء حاجة، يرحبون بك ويعتنون بك، كي ترحب بهم وتعتني بهم عندما يأتوا إلى حاجتهم في دكانك.

بعد سنة من عمله عند الحوذي اشترى أبوه محلاً صغيراً في زاوية بناء في قلب المدينة، ثم اشترى له مكنة خياطة، فأصبح جمعات يعمل في محله ويستقطب شرائح الناس بسبب معارف أبيه وسعة علاقاته من خلال وظيفته، فبدأ الناس يتوافدون إليه من الأرياف والقرى والأحياء حاملين أحذيتهم لإصلاحها.

أما /ديار/ الأخ الذي يصغر جمعات بأربع سنوات فهو /مغولي/ يمضي أوقاته في الشوارع وبين البيوت مرتدياً جلباباً ناصع البياض ويعتمر على رأسه قبعة صغيرة بيضاء، وبيده مسبحة.
أحياناً يغيب عن البيت أياما عندما يصطحبه بعض الناس معهم إلى القرى ويكرمونه تقديراً لعاهته رغم أن أباه لا يرغب في خروجه، ولطالما ربطه في البيت أياماً كي لا يخرج، بيد أنه يتخلص من الحبل عندما تتدخل إحدى أخواته خلسة، أو يتدخل جمعات، أو تتدخل خالته نسيمة فتحلُّ عن يديه وقدميه الحبلَ الذي عقده أبوه بشكل جيد، وهي تشفق على صرخاته وهيجانه، ولطالما تلقوا ضرباً مبرحاً وتوبيخاً منه نتيجة هذا التدخل، لكنه في نهاية الأمر فقد الأمل، فترك له الحبل على الغارب، وأقنع نفسه بما آل إليه حال ابنه.

لبثت حياتُهم تمضي وفق هذا النمط حتى ألفوا أنفسَهم يعيشون مع خالتهم نسيمة عندما ماتت أمهم بعد أن وضعت ابنتها الأخيرة بارعة بيومين نتيجة النزيف، حيث تفاجأ الناس بعد ستة شهور بأن ثابتاً تزوّج أخت زوجته /نسيمة/ التي كانت إذ ذاك تصغره بخمس وعشرين سنة، تزوّجته رغم أنها فتحت على نفسها باباً من الأقاويل والإشاعات ورغم معارضة أخوتها وأبيها، بَيد أن الأم والأخوات كن مترددات في الرفض، وأيَّدْن وجهة نظر الأخت التي أرادت أن تجعل من نفسها كبش الفدا في سبيل إنقاذ أبناء أختها المتوفية، وذلك أقل ما يمكنها أن تقدّمه لذكرى أختها فهو كما تقول: شخص مجنون، سوف يُدمّر الأطفال

بأفكاره المتشدّدة وأحاديثه السوداء التي يفزعهم بها، وقد نموا وترعرعوا على هذا الفزع كما كانت تروي لها أختها /ابتهال/ وهي تشكو سوء معاملته لها ولأولاده.
بل حتى إنها تذهب إلى أبعد من ذلك فتتهمه بأنه سبب مباشر في موت أختها، وهي التي كانت أحياناً تمضي في بيتها أسبوعاً ثم تمضي أياماً متقطعة أخرى في الشهر، حتى باتت تعرف الكثير من الأسرار وطبيعة العلاقة التي كانت تربط ثابت بزوجته وأولاده.

باتت تعرفه بشكل جيد كما كانت تخبرها أختها عن بعض طباعه، ولذلك ولد إحساس بالأمومة في داخلها تجاه الأولاد الذين كانوا يهرعون لملاقاتها عندما كانت تأتي وتصطحب لهم السكاكر والبسكوت والحلوى، وبعض الهدايا المتواضعة التي كانت ترسلها معها أمها للأطفال.
كان حضور نسيمة يخفف عن أختها ما تلقاه من ألوان القهر، فتحدّثها عن أهمية أن تتمتع بأكبر قدر من الصبر في سبيل الحفاظ على كيانها الأسري.
كانت تقى تنفردُ بأختها وهي تروي لها قسوة زوجها وعنفه بحقها، حيث كان يعرّيها ويسكب الماء الساخن على جسدها، ثم ينهال على جسدها بالسوط، وأحياناً يدس رأسها في إناء الماء ثم يحرق أصابع قدميها بملعقة يسخنها على النار حتى تغدو حمراء فيلسع أصابعها وهي تزداد صراخاً وذعراً، بينما يتكور الأولاد بوجل في زاوية وهم ينظرون إلى أبيهم الجلاّد وهو يجلد أمهم دون أن يجسروا حتى على البكاء لأن أي صوت يصدر من أحدهم يعني تلقيه ضربةَ سوط شديدة على بدنه، وهو يخبرهم بأنه يتعمّد ذلك على مرأى من الأطفال كي ينذرهم بأن مصير أي شخص في البيت سيكون كمصيرها إذا عصى له أمراً، أوخرج عن طاعته.
ثم تخبرها أنه أحياناً عندما يشتدّ به الغضب، ويريد أن يبرح البيت للذهاب إلى العمل، يقفل عليها ليس باب الحوش فقط، بل باب الغرفة، فلا يكون أمامها سوى أن تمضي الوقت مع أطفالها في غرفة محكمة ريثما يعود، وفي بعض الأحيان يصعّد من عقابه لها، فيدعها في غرفة موثوقة اليدين والقدمين والفم ثلاثة أيام حيث لا طعام ولا شراب،

وعندما يفتح عليها الباب يجدها مُغمىً عليها عندئذ يحل عنها الحبل ويرميها بين أطفالها الذين لا يجسرون حتى على البكاء بحضوره لأنهم يدركون نتيجة ذلك.

لكن عندما تزورهم نسيمة يتظاهر بأنه يحسن إليها، تتفاجأ ابتهال وهي تنظر إليه بازدراء يمازحها ويلاطفها كما لو أنه زوج ودود، وأب حنون، وأن زوجته امرأة جلفة عصابية يحتمل معها العيش على مضض حفاظاً على أولاده حتى إن نسيمة تصدقه وترى أن أختها تضخم في الأمر قليلاً، فما تلبث أن تقول لها: إنه رجل حنون يا ابتهال، ها هو يجلب لي جوز الهند، ويكرمني، ولم يسبق لي أن سمعت منه كلمة جارحة بحقك أو بحق أحد الأطفال، أو حتى بحقي.
فتهز ابتهال رأسها امتعاضاً وتركن إلى الصمت.
لكنها في الليل عندما ينام ثابت، تسهر مع أختها إلى ساعة متأخرة تروي لها وقائعَ ما تلقاه من ألوان العذاب والويل من هذا الرجل العدواني، ولا شيء يصبرها على العيش معه سوى أطفالها هامسة:
راح يجنن الأولاد يا أختي إذا طلعتُ من البيت هذا
/الزمكّ/ وهي تلقبه بـ /الزمكّ/ نظراً لقصر قامته.

عندما ماتت كان ابنها الكبير جمعات في السنة الثانية عشرة، عندها فوجئت الخالات أنه حذّر عليهن دخول بيته لأنهن كما قال لم يعدن محرمات له، وهن في الوضع الراهن أصبحن أجنبيات عليه، ولا يحل له أن يستقبلهن في بيته.
أدّى قراره هذا إلى حرمان الخالات من رؤية أبناء أختهن في بيته، لكنه كل شهر كان يأخذهم إلى بيت جدهم مرة واحدة يمضون ثلاث ساعات في المساء ويعيدهم دون أن يتحدث مع الخالات كلمة واحدة، أمّا بارعة، فقد أخذها إلى إحدى أخواته لتتولّى رضاعتها.
في الشهر الخامس فوجئ الأب به يأتي مساء دون الأولاد ويطلب إليه الزواج من ابنته نسيمة، هكذا قالها دون مقدّمات، وبعد جلوسه بربع ساعة فقط.

كانت مفاجأة غير متوقّعة لأبيها حتى أنه أحس بشيءٍ من الإهانة في بداية الأمر، إلاّ أنه تمالك نفسه وقال: سمعت مطلبك يا ثابت أفندي، وجوابي سيصلك بعد أيام.

عندما خرج ثابت، اختلى الرجلُ بزوجته وأخبرها في الحال بمطلبه، وهو يكظم غيظه، تلقت الزوجة أيضاً الخبر بدهشة وشيء من الصدمة، ورأت أن تتأنى في إعلام ابنتها ريثما يمضي بعض الوقت.
قالت لزوجها : لنفرض أن شيئاً لم يحدث، حتى يفرجها الله.
بعد يومين من التفكير والتحاور بينها وبين زوجها، قررت أن تخبر ابنتها بالأمر حتى تقرر ما تراه في هذا الشأن.

في المساء حملت كأساً من عصير البرتقال، وانفردت بها قائلة بأنها تريد أن تحدثها في شأن خاص.
جلست نسيمة في حالة إصغاء لما تقول الأم التي جلست قبالتها وما لبثت أن قبضت بكفيها على كفَي ابنتها قائلة لها بلهجة شديدة الجدّية، وهي تصوّب نظراتها إلى عينيها: اعلمي يا بنتي بأنك تملكين كامل حريتك في شأن مصيري كهذا، قرري ما ترينه صواباً، أما نحن، فلا حق لنا أن نُبدي رأينا قبل رأيك كي لا نترك أثراً على ما ما تفضين إليه، لكننا نوافق على ما ترينه صواباً بالنسبة لك.
عندما علمت بمطلب ثابت انبجست دموع من مقلتيها، وعلت غصة إلى حنجرتها، دون أن تجسر على النطق، انهمرت الدموع من عينَي الأم كذلك، ولم تملك سوى أن تتركتها في شأنها.

بعد خروج الأم بنحو ساعة، عادت إليها كرة أخرى حاملة إليها كأساً من اللبن الرائب، وخرجت.
شردت نسيمة في الأمر طويلاً ولبثت في صراع بين رغبتها في رعاية أطفال أختها، وعدم تصورها أن تكون زوجة لثابت، لكنها بعد ثلاثة أيام بلغت فكرة توفيقية رأت أن تطرحها على ثابت لتسمع رأيه قبل أن تتخذ قرارها النهائي بشأن مطلبه.

بدورها أعلمت الأم زوجها بما أرادته نسيمة، فرأى أن تصحبها إلى بيت الرجل كي تخبره بما انتهت إليه، ويتفقا على شيء يعينهما في اتخاذ قرار مناسب.

ذهبت المرأة مع ابنتها إلى بيت ثابت الذي استقبلهما بترحاب، عندئذ أخبرته بأنها ستوافق على طلبه بشرط ألّا تنجب، وما دام يقول بأنه لا يريد لامرأة غريبة أن تدخل على الأطفال، فهي أيضاً ستوافق فقط من أجل ألّا تدخل امرأة غريبة على الأطفال، وهي لا تشعر نحوهم بأي مشاعر أمومة، ثم قالت: إن وافقتَ أن تتعامل معي كمربية، وكزوجة عاقر، وافقتُ على مطلبك هذا، وكنتُ لهم أمّاً، ولذلك سأحرم نفسي من الإنجاب، لأنني لو أنجبت طفلاً، لا أملك من أمري إلّا أن أفضله عليهم، وعندها لن يكون هناك فارق بيني وبين امرأة غريبة لاتقربهم بصلة.

عندها قال ثابت بأنه اختارها كي تكون مربية لأطفاله، وأبدى موافقته على مطلبها، وأثنى على موقفها.
حين مّدت نسيمة قدميها إلى البيت، لا تدري لماذا راودها إحساس داخلي بأنها تتمثل شبح أختها.
علت حنجرتَها غصةٌ في ساعة ما بعد الغروب تلك، حيث أحضر ثابت سيارة، وأصعدها كما لو أنه يعيدها إلى بيتها، وليست عروساً تُزف إلى ليلة دخلتها.
بدا كل شيء في البيت باهتاً، وهي تتخيّل نظرات أختها، يودي في سمعها صدى صوتها.
أدخلها إلى غرفة النوم، ومن جديد امتلأت عيناها بالدموع وهي تشعر بشيءٍ من الفِصام بين أنها في حلم، أو في واقع، وكلمات أختها تجلد سمعها وهي على فراش المرض: الأولاد أمانة في عنقك يا نسيمة، حافظي عليهم كما تحافظين على عينيك، لا شيء لي غير أولادي في هذه الدنيا، إنهم رائحتي في الحياة، ثابت مجنون، سوف يشردهم.

بدأت الأفكار تراودُ مخيلتها، فهل كانت تقصد أمراً كهذا دون أن تصرّحَ به جهاراً؟ أم كانت تقصد أن تهتم بهم عن بُعد؟ هل تسرّعت في

قرارها؟ أم أنها فعلت عين العقل كي تبقى مع أبناء أختها وتهتم بهم دون أن تتركهم لامرأة أب غريبة لا تشعر نحوهم بأية صلة قرب، وقد تكون سبباً في فشلهم وتشردهم.
في صبيحة اليوم التالي رأت الوجه المتواري لثابت، الوجه الذي كانت أختها تسهب في الحديث عنه، إذ أخبرها أنه في عجلة من أمره، ولا بد أن يخرج كي يعيدَ بارعة من بيت أخته وسوف يرجع مساء محذراً إياها ألا تفتح الباب لأحدٍ مهما كان الطارق.

لبثت تحتمل وهي تربي الأولادَ سنة بعد سنة برفقة زوجها الذي يرعبهم بأحاديثه عن الخطف، ومداهمة البيوت، ثم عن أهوال الموت والعقاب.
أحياناً كانت تراه يتقصد بث الرعب فيهم من خلال إصدار أصوات مُفزعة في منتصف الليل، وهو يمثّلُ أن لصاً قد قفز إلى الحوش، فيصرخ به حتى يهرب اللص.
أو على حين بغتة يُخرج مسدسه ويطلق رصاصة، وعندما ينهضون مذعورين يقول بأنه أطلق النار على أشخاصٍ كانوا يتسلقون الحائط فهربوا، أو لعل أحدهم سقط مغشياً بالرصاصة، ثم يُسارع بالركض إلى الشارع، وبعد لحظاتٍ يعود قائلاً: لعنة الله عليهم، لقد فلتوا هذه المرة أيضاً.. احذروا، لا تفتحوا الباب لكائن مَن كان بغيابي.

لم يكن يدعها تُبادر بفعل أي شيءٍ يخص البيت، وكأنه ليس بيتها، وعندما تطلب منه أن يتركها تفعل أشياءً تجعلها تشعر بالمسؤولية تجاه البيت، يردّ عليها قائلاً: صحيح أنكِ زوجتي على سنة الله ورسوله، لكننا اتفقنا أن يكون ذلك كي يحل لنا العيش معاً، لكن الحقيقة أنت خادمة للأولاد فقط، لا يحق لك التدخل في شؤون البيت.
وعندما تريد التحاور معه، يصفعها، ثم يجلدها، ويربطها في غرفة محكمة لمدة يومين دون أن يفتح الباب لأي سبب كان؛ يقع عليها بالضرب المبرح في هذين اليومين، يهينها، يلسع جسدها بأعقاب سجائره، فتقول: لتعلم يا ظالم بأنني لا أحتمل ذلك من أجلك، بل من أجل الأولاد، لو لم يكونوا أبناء أختي لتركتك منذ الشهر الأول.

ذات يوم عندما رجع ثابت من عمله ولم يجد في البيت ابنته بارعة التي كانت في ربيعها الثامن، احتقن وجهه سائلاً عنها، فأخبرته نسيمة بأنها عند صديقتها في بيت الجيران؛ لم ينتظر أن تعود الطفلة، بل هرولَ بخطواته خارجاً إلى حيث كانت مع صديقتها، وجرجرها من شعرها إلى البيت، ثم بدأ ينهالُ عليها ضرباً بالسوط حتى بح صوتها بكاءً، ثم عاد بالسوط إلى نسيمة وأنفاسه تتسارع، وبدأ ينهال على جسدها دون تمييز ضرباً مبرحاً لأنها سمحت لها الخروج ودخول بيت الجيران واصماً إياها بخائنة الأمانة.
ينهال عليها جلداً وهو يوبخها بصوته المرتفع: لو تزوّجتُ امرأة غريبة، لما تَرَكتْ الطفلة تذهب إلى بيت الجيران، لنفرض أن مراهقاً في البيت اغتصبها، لنفرض أن شخصاً خطفها من الشارع واغتصبها.
لو كانت ابنتك لما حدث ذلك، لكن لا أحد يحل محل الأم.. أنتِ تريدين التخلص من الأطفال، قولي ما بِنفسك، لتعلمي جيداً بأنني لم أفرض عليك الزواج، وقد وافقتِ بمحض إرادتك، ولا يجوز لك أن تتركي الأطفال في الشوارع، أوفي بيوت الجيران.

ثم هرع إلى المسدس، وأطلق رصاصة بالقرب من رأسها قائلاً بغضب: هذه الرصاصة لن تخطئك المرة القادمة إذا عدتُ ولم أجد أولادي في البيت، لو تركتُهم في حراسة كلبة، لكانت أكثر أمناً بهم منك.

ثم عاد بالسوط إلى الطفلة التي لمّا تزل تنشج بنبرات كسيرة ، وشرع في الضرب على جسدها، حينئذ صرخت نسيمة: الرحمة بها يا ظالم، دع عنك هذا السوط الأعمى، أو هيا اضربني بدلاً عنها، تذكر بأن ربها يتجاوز لك عن ذنب ارتكبته، وهو قادر أن يعاقبك بالقدر الذي تعاقبها به، رغم أن تجاوزك لحدود ربها هو أعلى من تجاوزهذه اليتيمة لحدودك.
كان يسمع نداء الرحمة والشفقة وهو يزداد ضرباً، حتى نال منه الإرهاق.
في المساء عندما راح يمدّ يده لإنارة المصباح، تلقى لسعة كهرباء قذفته إلى الحائط المقابل ليسقط مغمياً عليه، صرخت نسيمة حتى دخل بعض

الجيران، وأسعفوه على جناح السرعة إلى المشفى، وفي اليوم التالي أعادته نسيمة إلى البيت وقد أصيبت يده اليمنى مع قدمه بشلل نتيجة الصدمة الكهربائية، فاضطر إلى المكوث في البيت طريح الفراش يتلقى على رأس كل شهر معاشه التقاعدي بسبب ما ألم به.

عندها أحست نسيمة بأن طفلاً آخر أُضيف إلى مسؤوليتها، فقد تحول ثابت إلى طفل يحتاج أن تبقى إلى جانبه وتعينه في تلبية احتياجاته.

في هذه الأجواء ترعرعت تُقى مع أختيَها وأخوَيها دون أن تتحدث مع رجل سواء من الأقرباء، أو من الجوار، حتى إن أباها اضطر في نهاية الأمر للموافقة على تكملة دراستها، وذلك عندما هددته نسيمة بأنها سوف تتركه وتعود إلى أهلها إذا أخرج البنت من المدرسة، فهدأ حينذاك وقال بأنه يوافق أن تذهب إلى المدرسة وتعود إلى البيت، وإن سمع أنها خرجت عن الطريق سوف يحرمها من الدراسة.

ها هي تنظر لأول مرة نظرات جديدة ومختلفة إلى رجل، تعتريها رعشات وخفقات جديدة عليها، في الظهيرة عندما عادت أنزلت مباركية، ووقفت تتحدث مع أمها عن سلوكها الممتاز في الحضانة، وأطالت الوقوف على غير عادتها بأمل أن تلمح ذاك الشخص الذي بدا يهيمن على تفكيرها، ويجعلها في حالة شرود.

غدا الشارع سحرياً بالنسبة إليها، وكأن لا طفل في الحضانة سوى مباركية ولا شارع غير شارعها.
تتخيله، تسترجع بذاكرتها كل كلمة قالها، كل كلمة قالتها له، حركته وهو يخرج ويريد أن يطرق باب الجيران، دون أن تخبر أحداً حتى خالتها نسيمة التي تثق بها.

تأتي في الصباح، وتعود عند الظهيرة، وما يزال الباب مغلقاً كأن لا أحد يسكنه، لكن بعد نحو شهر وبينما كان الباص يدخل الشارع، لَمَحته قادماً إلى البيت؛ عندما توقف الباص نزلت مسرعة لتقع عيناها عليه وتقع عيناه عليها.

من جديد تأجّجت في قلبه المشاعر وهو ينظر إليها، تجرّأ قادماً وهو يسألها عن اسم الروضة التي تعمل فيها، وعندما أخبرتْه سألَها إن كان بإمكانه زيارة تلك الروضة.
رحّبَت بذلك، فقال بأنه عند الساعة العاشرة من صباح يوم بعد الغد سوف يكون هناك.
في تلك اللحظات أحسَّت تُقى بأنها ملكةُ العالم بأسره، ولبثت تعد الساعات حتى حان موعده.
كانت قابعة في غرفة تنظر من خلف زجاج النافذة إلى الباب الرئيسي للروضة حينما لمحته يلج.
انتفضت إذ ذاك، وهرعت تستقبله بترحابٍ جَمٍ وقد احمَّرت وجنتاها خَجَلاً، ثم راحت تُريه الأجنحة والميزات وتُخبره عن نظام التدريس قائلة: نحن بالخدمة يا سيدي، أنا اسمي تُقى.
شَكَرها على حسن استقبالها له وقال: اسمي ألماظ.. أعمل خطاطاً.
قالت: هل لديك طفل تريد إدخاله الروضة؟

قال: لا، في الواقع أنا عازب، ولكن.. توقف قليلاً عن الكلام، ثم استأنف يقول: المعذرة، لا أستطيع أن أخادع نفسي، أو أخادعكِ، الحقيقة أنني جئتُ كي أسألك إن كان بإمكانك استقبالي بهذه الحفاوة إذا زرتُ بيتك؟
قالت: على الرحب والسعة يا سيدي أنت تشرّفني وتشرّف بيتنا، بل يتشرّف كل مَن في البيت بزيارتك الكريمة.
قال: سوف آتي مع أمي يوم الجمعة مساءً.. هل توافقين؟
قالت: مرحباً بك وبِمَن معك، سأخبر أبي كي يكون بانتظارك.
عند عودتها إلى البيت، أخبرت خالتها نسيمة بالأمر، ففرحت ولأول مرة أحسَّت بلذة ثمرة رعايتها، فها هي تُقى ستتزوج وتفتح بيتاً، راودها إحساس بأنها ستنجب لها حفدة.
قالت: سوف يأتي الرجل خاطباً يا بنتي، ولذلك سيجلب أمه.
أحسَّت تُقى بالخجل وراحت تحكي لأختَيها تقية، وبارعة بينما دخلت نسيمة على ثابت المستلقي على ظهره وأخبرته أن نصيب ابنته سيطرق الباب يوم الجمعة القادم.

استغلّ ثابت الأيام مكلّفاً أحد أخوته كي يسأل عن الرجل وعن عائلته، ثم أخبر نسيمة عدم ممانعته لهذا الزواج.
عندما حضر ألماظ مع أمه، استقبله ثابت على فراشه في غرفة الضيوف، وتقدّمت تُقى لتصطحب أمه إلى غرفة النساء.
بعد الموافقة المبدئية، عاد ألماظ مع أبيه، وأخواله، وأعمامه، وبعض المقربين مع نسائهم بعد أسبوعين لطلب يدها بشكل رسمي.

كانت المرة الأولى التي تكتشف فيها عالم الرجل، تتعرفُ على مزاياه عن قرب وكأنه ملخصٌ لرجال العالم جميعاً؛ بدأت توقّره وتحترمه بكل ما تملك من حذر وحرص، وتخجل أمامَه من الحديث في هاتفها الخلوي أو الأرضي، لذلك عندما كانت تدخل البيت عائدة من الروضة تقفل الهاتف، وإذا اضطرت للحديث مع أهلها في الهاتف الأرضي، كانت تشعر بحرج وخجل، فيرى ألماظ ذلك ويتركها مع الهاتف.

بدأت تنفتح على وقائع حياة جديدة لم يكن لها عهد بها من قبل، تتعلم منه كيف يمكن للإنسان أن يعيش ويقول الحقيقة، كيف يمكن له أن يكون كائناً حقيقياً، يتذوّق عسل نصوع الحقيقة.
كانت تمضي ساعاتِ الليل الطويلة برفقته وهي تصغي إليه بانتباه شديد، يتحدث وتتعلم منه ما لم تكن تعلم، ينتابها شعور بأنها تزداد حباً وتعلقاً به، تدرك مع إصغائها إليه كم أن المرأة بحاجةٍ إلى رجلٍ حقيقيٍ تتعلّم منه، وتكون قوية به، ليس أي رجل، بل الرجل الزوج بكل مزايا هذا الزواج.

بدأت وقائع حياة ألماظ تتنقل إليها وهو الذي اعتاد على السفر، والسهرات خارج البيت، وزيارة بيوت الأصدقاء، واستقبال الضيوف، ولكن هذه المرة بدأت السمة العائلية تفرض ذاتها، فبدأت تقى تصطحبه إلى الأماكن التي يتردد إليها؛ كما بدأت تستقبل أصدقائه مع عائلاتهم، وتعقد صداقات قويمة مع زوجاتهم، تصطحبه إلى ربوع البلاد، وإلى بلادٍ أخرى يزورها، وهي تجوب المدنَ وتكتشف الجانب المخفي الذي كان محجوباً عنها من الحياة.

بدوره كان ألماظ يتقصّد ذلك، وأحياناً يُكثر من السفر، أو الخروج برفقتها من البيت وهو يشعر بأنه يعدّها إعداداً جيداً كي تكون زوجة العمر الأثيرة لديه تكون أمّاً أمّاً ومربية ومرشدة لأولاده.
يعدّها لتشكّل معه دعائم المستقبل الذي ينشده، وتكون شريكة حقيقية لبناء أسرة صغيرة.

* * *

يشرد ألماظ مستلقياً على فراشه وهو يشعر بأن النهار تأخر كثيراً، يلقي نظراتٍ وسط العتمة إلى زوجته التي تحمل في بطنها ولداً كما أظهر التصوير، وقد دخلت شهرها التاسع، وبعد أيام عليها أن تقدّم طلباً إلى إدارة الروضة كي تحصل على إجازة الأمومة.
ينظر إلى ابنته ميرهان ذات السنوات الثمانية، ثم إلى ابنه نجد الذي يصغرها بثلاث سنوات، يتخيّل أخاً لهما بعد عدّة أيام.
أغمض عينيه كي يغفو لعله يصحو على طلوع الضوء، بيد أن محاولته باءت بالفشل كرة أخرى.

استطاع ألماظ خلال خبرته مع هذه الحالة الاقتناعَ بأن قلة النوم وزيادة الإرهاق مع شيء من عدم الانضباط في تناول الطعام خلّفَ ما يعتريه من اضطراب في النوم، فهو لا يأخذ حاجته من النوم رغم أنه يجد وقتاً كافياً يزيد عن ست ساعات كي ينام فيه نوماً متّصلاً دون انقطاع، ويجد ساعتين في النهار كي ينام فيهما، إلاّ أنه لا يغفو لحظة في النهار، ولا يأخذ حاجته الكافية من النوم في الليل حيث لا يستغرق به النوم أكثر من ساعتين متصلتين، ليجفل، ثم يكمل نومه.
أحياناً يشعر بأن محرّك طاحونة يدور في جمجمته، ويفقد المقدرة على التركيز، وعمله كخطّاط يحتاج إلى تركيز كي يحافظ على جودة وفنية خطه ولا تتداعى سمعته كخطّاط بارز شهير يتمتع بسيرة حسنة في مدينته.

ومما زاد في شهرته وترسيخ اسمه كخطّاط مبدع في المدينة يُشار إليه بالبنان، ويتردد إليه الناس كي يخط لهم ما يشاؤون حيث يحظى بالأولوية في زخرفة أبنية المساجد، والكنائس، والقصور، والأبنية الحكومية، وبعض الفلل الفاخرة، وبعض الأماكن من مسابح ومتنزهات ومطاعم، إضافة إلى واجهات ولائحات ترده بشكل يومي، حتى بات توقيعه ميزة تمتاز بها اللوحة التي تكون عادة باهظة الثمن، لأنه اعتاد أن يعمل بجودة مستخدماً مواداً ثمينة، وبذلك يقبض أجراً مرتفعاً، ويعتبر كل عمل بمثابة إنجاز شخصي له، وإضافةٍ حقيقية جديدة إلى تاريخه الفني، ومما زاد في شهرته وترسيخ اسمه هو حصوله على جائزة إقليمية كبرى في تركيا، حدث ذلك عندما أخبره صديقه الدكتور

ريزدار عن شروط هذه المسابقة في الهاتف، وعندما أبدي استعداده للتقدّم إليها جاء إلى مشغله في اليوم التالي حاملاً الصحيفة التي نشرت الخبر مع شروط المشاركة.

تفاجأ ذات يوم بعد مرور نحو أربعة شهور بسيدة تتصل به على هاتفه الخلوي، وتخبره أنه قد فاز بالجائزة الثانية في المسابقة.
كان ذلك بمثابة خطوة حقيقية نحو الأمام في عمله، حيث بدأ يتذوّق لذة التكريم، مما دفعه لينظر بجدية أعلى إلى عمله، خاصة وأنه عند ذاك كان متزوجاً منذ سنتين، وقد ضاعفت تقى من تشجيعها له كي يهتم بعمله بشكل أكثر.
بعد شهرين من الاتصال تلقى دعوة لحضور حفل استلام الجوائز، وطلبت منه المنسقة أن يرسل من خلال الفاكس، أو البريد الالكتروني صورة عن جواز سفره كي ترسل له الفيزا، وبطاقة الطائرة، وتحجز له في الفندق.

عند ذاك لم يتردد من القول لها بأنه يرغب في إحضار زوجته معه كي تشاركه الحضور في الحفل، وقال بأنه يتحمل تكاليف السفر والإقامة، وما عليها إلّا أن ترسل لهما الفيزا وبطاقة الطائرة وتحجز لهما في ذات الفندق معاً.
قالت المنسقة بأنها سوف تتصل به غداً كي تخبره الجواب.
عند ظهيرة اليوم التالي عاودت الاتصال به على هاتفه الخلوي وكان على رأس عمله يعلّق لوحة جديدة على واجهة شركة افتُتحَت حديثاً، نزل من السلّم، وبدأ يتحدث مع المنسقة التي قالت له: كيف حالك فناننا؟
قال: بخير.
قالت: يسعدني إبلاغك أن المدير العام للجائزة وافق على استضافة حرمكم أيضاً على نفقة الجائزة، أرجو أن ترسل لنا صورة الجوازين معاً.
شكرها على ذلك، وعندما أقفل الخط، طلب من مساعده أكّاد أن يثقب أماكن بعض البراغي، واتصل بتقى التي كانت في الروضة، وأخبرها بما سمع.

بدت المرأة سعيدة بسماع النبأ، وهي التي ستسافر إلى تركيا لأول مرة، لكنها كتمت الأمر ولم تخبر أحداً في الروضة عما سمعته.
بعد نحو عشرة أيام أخرى أرسلت لهما المنسّقة الفيزا مع بطاقتَي الطيران وحددت لهما موعد السفر، وقالت بأنها سوف تستقبلهما في مطار اسطنبول لتأخذهما إلى الفندق.
ثم أردفت: جرَت العادة في جائزتنا أن يلقيَ كل فائز كلمة بمناسبة حصوله على هذه الجائزة، يتحدث فيها عن مفهومه للخط، أرجو يا أستاذ ألماظ أن تتحف الحضور بكلمتك.
قال: أشكرك ياسيدتي على هذه الثقة، وسوف أباشر في إعداد كلمتي بهذه المناسبة.

حصلت تقى على إجازة لمدة أسبوع، وسافرا ليمضيا أسبوعاً في تركيا، كانت المرة الأولى التي يقيما فيها في فندق خمس نجوم.
في اليوم الثالث لوصولهما كان الموعد مع افتتاح حفل استلام الجوائز بحضور الفائزين ولجان التحكيم، وبعض الضيوف.
بعد استلامه الجائزة، وقف ألماظ على المنبر ليلقي كلمته بهذه المناسبة فقال: يشعر القارئ المتدبر في قراءته بشيء من الأنس والنشوة وهو ينظر إلى جمالية الخط الذي يتضمن المعاني السامية.
الخط ذاته يجذب القارئ إلى القراءة، ولذلك فبتقديري أن قراءة النصوص وخاصة الإبداعية تكون أكثر دلالة عندما نقرؤها بخط يد الكاتب.

لنتذكرْ الرسائلَ التي كانت تصلنا بريدياً وكنا نقرؤها، ونقارنْ ذلك بما يصلنا اليوم بعشرات الرسائل سواء من خلال بريدنا الالكتروني، أو من خلال الفيسبوك، وبعض المواقع الاجتماعية.

لنتذكرْ لهفةَ انتظار الرسالة من البريد، متعةَ وفنية فض الغلاف، التمتع بإمساك الصفحة، شمّ رائحة المرسل من الصفحة المكتوبة بخط يده.

لذلك كله يمكنني أن أقولَ بدون لحظة تردد أن القراءة الورقية تبقى هي الأصل في نهل الثقافة، بل في قراءة أي عمل أدبي هام.

الخطُّ بصفة عامة هو لغة بيانية جمالية تعبر عن سمات شخصية كاتبها، وكما أن الخط هو لغة للتعبير عن الألفاظ، وتفجير لدفق المشاعر الإنسانية ، فإنه كذلك يعبر عن كاتبه ، ولذلك يلجأ البعض إلى قراءة الخط ، والخط هو كالبصمة إذ لكل شخص خطه المميز عن الآخر، هذا الخط الذي يكون دليلاً إلى شخصية كاتبه؛ لذلك عُنِيَ الخط بصفة عامة بالاهتمام سواء من خلال علماء التحليل النفسي، أو من خلال رموز الفن التشكيلي، أو من خلال علماء اللغة والألسنيات.

إن خط الكاتب بيده يشكّل جمالية وخاصية بالنسبة للمتلقي، ولذلك نرى أن المخطوطات التي كتبها مؤلفوها تتمتع بقيمة فنية وأدبية ومادية ثمينة.

القارئ هنا يقرأ بشكل مباشر أفكارَ الكاتب بخط يده، وهذا يجعله أكثر تذوقاً للأفكار، وأكثر استيعاباً للمسرود اللغوي.
يشبه الخط هنا اللوحة التشكيلية، ويشبه الصورة الفوتوغرافية، فهو الدليل والرشيد إلى قراءة شخصية صاحبه.

أريد أن أوضح أمراً أراه هاماً في هذه المسألة وهو أننا نحتاج إلى دراسة تفكيكية وتحليلية وجمالية عن سيكولوجية الخط، أن نفصل الخط عن اللغة بما يمكنني تسميته بمشروع: لغة الخط، وخط اللغة.
عندما نقرأ الخطَ علينا أن ننسى اللغة التي يحملها، ونكتفي بقراءة لغة الخط وكأننا نقرأ لوحة تشكيلية.
علينا أيها السيدات والسادة هنا أن نميّز كثيراً في عملية الفصل هذه، فصل اللغة عن الخط، وفصل الخط عن اللغة، عند ذاك سوف نتمكن من تذوّق لغة الخط، ونستطيع أن نتحدث عن عالم الخط ونحن نلج محراب عالمه؛ من هنا وقع الكثير من الدراسات في الخلط بين الخط، وبين اللوحة التشكيلية، فكأننا نقرأ دراسة عن التشكيل وليس عن اللغة، وهذه مسألة غاية في الحساسية، لأن التشكيل يعتمد على اللون وعلى القسمات، في حين أن الخط يستمد جماليته من الكلمة التي يحملها، فإذا

أراد خطاط ماهر أن يزيّن كلمة (الشيطان) فسوف تبقى مظلمة حتى لو كتبها بالأضواء ومهما برع في جمالية الخط.

تحول الخط إلى شكل من أشكال الفنون، وأصبح علامة مميزة تعبر عن الأحقاب الزمنية، وهو يتمتع بمنزلة رفيعة إلى جانب ما أتى به الإنسان من ألوان الآداب والفنون.

قراءة الخط تتمتع بخصائص مختلفة عن قراءة اللغة، إنها شبيهة بقراءة الكف، وقراءة البصمة، وقراءة نظرات العين، قراءة قسمات الوجه، قراءة نبرات الصوت، قراءة تفرعات الضحك، قراءة ألوان الرقص؛ هنا سوف يكون بمقدورنا أن نتعرف على الخطاط من خلال خطه، أن نحلل شخصيته من خلال تحليل خطه، ولذلك نرى القيمة المادية والمعنوية للمخطوطات الأدبية والفكرية التي خطها مبدعوها بخطوطهم، فنحن هنا نقرأ الخط، بعد أن قرأنا اللغة، سيكون بإمكاننا أن نتمعن كثيرا في تلك الكلمات التي كتبت في أوقات مختلفة، ذاك السطر كتبه وهو مرتبك، هذا السطر كتبه وهو هادئ.

الخط من الأشكال التعبيرية الهامة التي اخترعها الإنسان ليعبر من خلالها عن مدى شاعريته، ومدى إمكانيته للتعبير عن الجمال.

ليس بوسعنا أن نفصل عن مدلولات الخط، وعن المعنى الذي يعبر عنه، وهنا يتشابه الخط ذاته مع خطوط اللوحة الفنية، كما أن اللوحة الفنية أيضاً تعبر عن معان لغوية في علاقة ترادفية بين رعشة جمالية الفن، وقوة تأثير المعنى.

قدّم شكرَه الجزيل للحضور على حسن الإصغاء، وعاد يجلس إلى جوار زوجته. في اليوم التالي أخذتهما لجنة من الجائزة للتفرج على معالم مدينة اسطنبول وأخذ صور تذكارية.

أمضيا أسبوعاً مما يمضيه كبار أثرياء العالم، كانا يتنقلان بين أجنحة الفندق ليريا ويجلسا في موضع واحد مع رجال أعمال كبار في العالم.

عندما استلما قيمة الجائزة، راحت تقى تشتري بعض الهدايا الثمينة لـ /ماما نسيمة/ ولأبيها، ولأخيها جمعات، وزوجته وأولاده، ولأخيها ديار، ولأختيها تقية، وبارعة الذين يعيشون جميعاً في بيت واحد حيث قرر جمعات عندما تزوّج أن يقيم في ذات البيت وكان ذلك بتشجيع من ماما نسيمة التي قالت: يا جمعات لا تنسَ أن أولادك هم أحفادي، أريد أن تبقوا في البيت.
وبدوره لم يتردد ألماظ من شراء هدايا ثمينة لأهله وبعض أصدقائه وخاصة الدكتور ريزدار الذي كان له الفضل في إعلامه عن هذه المسابقة.
لا يدريان كيف مضت الأيام السبعة وكأنها كانت حلماً، ثم عادا محملين بالهدايا.

بعد يومين من وصولهما واستقبال المباركين راح ألماظ يعلق شهادة التقدير في صدر مشغله، ثم قرر أن يشتري بيتاً، ويخرج من بيت أبيه الذي كان يقيم في غرفة منه.
مع انتقاله إلى بيته الجديد، بدأ ينظر إلى عمله بجدية أعلى، فيقرأ فنون الخط، وسير حياة الخطاطين، وأنماط الزخرفة، ويطور في خطّه، وأحياناً يضيف لمسات فنية جمالية إلى أشكال الخط.
استطاع أن ينطلق إلى عالم الخط، ويتحدث بلغته حيث تتحول كل لوحة على يدَيه إلى عمل فني متكامل.

عندما مضت ثلاث سنوات على نيله الجائزة، قرأ مصادفة عن مسابقة عربية للخط تقام في المملكة العربية السعودية، فتقدّم بتحف من خطه برفقة الشروط المطلوبة للتقدّم إلى هذه المسابقة.
بعد ثمانية شهور من ذلك وكان قد نسي أمر المسابقة، رن هاتفه الخلوي، وتفاجأ بالمشرف العام على المسابقة يحدّثه، ويبشره بحصوله على الجائزة الأولى في هذه المسابقة الكبرى.
كانت تقى إذ ذاك وضعت ميرهان منذ شهرين، ولم تتمكن من الذهاب معه، ولكن ماما نسيمة قالت بأنها ستبقى معها في البيت ريثما يذهب لاستلام جائزته ويعود، وماما نسيمة ذاتها كانت قد أمضت عشرة أيام

عندها في البيت عندما ولدت، ولكنها قالت بأنها مستعدة للبقاء مرة أخرى برفقة ابنتها وحفيدتها.
وكما هي المرة الأولى، سافر إلى المملكة، وأمضى أسبوعاً ليعود محملا بشهادة التقدير ودرع المسابقة وبعض الهدايا الثمينة والفاخرة لزوجته وابنته.
إضافة إلى هدايا تتعلّق بالخط لزملاء له في هذه المهنة.

قبل العودة بيوم واحد ذهب إلى أحد الصياغ، واشترى سلسلة ذهبية لـ ماما نسيمة، لأنه بدأ يكن لها احتراماً شديداً، ويرى بأنها المرأة التي ضحت بمستقبلها الزوجي في سبيل إنقاذ حياة أسرة بأكملها، والمهم في الأمر أنها استطاعت أن تواجه عقبات قاسية كي تنجح في مهمتها.

عندما فتح محله، علّق شهادة التقدير إلى جانب الشهادة الأولى لتصبح الشهادتان علامتين مميزتين في تاريخه الفني والمهني.
بعد عدة أيام اشترى سيارة، وأودع ما تبقى لديه من مكافأة الجائزة في المصرف.
في المملكة تلقى عروضاً من مجلات ومؤسسات للعمل، إلا أنه أبى ذلك دون تردد، لم يكن يتخيل أنه سيستطيع العيش بعيداً عن مدينته التي يشعر بأنه بناها لبنة،
لبنة.. حرفاً حرفاً.. لوحة لوحة.
عندما ينتابه شيء من السأم، فإنه سرعان ما يخرج من بيته، يتجوّل في شوارع المدينة سواء أكانت مزدحمة بالسكان في وضح النهار، أم كانت خالية في سكون الليل.
يعتريه إحساس بملكيته الجزئية للمدينة، يشعر بأنه يمضي في شوارع بيته الكبير شارعاً شارعاً، يتفقد الأزقة، والحدائق، والساحات.
يقف على جسر نهر الخابور ويتمتم: لا بد أن يعود إليك مجدك أيها النهر العظيم، وتسحق كل هذه القمامة التي استضعفتك واستوطنتك واستقوت عليك.
في الماضي كان النهر يتدفق بألق ويمدّ المدينة والقرى كلها بالحيوية والنشاط، كان الناس عندما يضجرون، يتسرّبون إلى حواف النهر

ليلتمسوا شيئاً من الأنس والانشراح, أو يصطادوا السمك منه، أو يعوموا في مياهه الغزيرة.
كان الخابور يعني لهم حياة متجددة التألق، ويبتلع السأم من نفسِ أي زائر إليه، وقد تحوّل إلى أنيس سكان المدينة ورفيقهم المخلص، الآن يغدو شيخاً هرماً مشلولاً ملقى على ظهره، لا نسمة أنس، لا لحظة تألق.
بات يبعث الشفقة للناظر إليه، لذلك يتحاشى الناسُ زيارته رأفة بما آلت إليه حاله، وحتى لا تتداعى تلك الصورة الجبارة للخابور في مخيلاتهم، وكي يبقى الخابور ثرياً، كريماً، قوياً، معطاءً، مؤنساً، متألقاً، متدفقاً، شاباً في مخيلاتهم.

يواصل ألماظ سيره التّفقدي على أركان إمارته، ينظر في الواجهات التي علقها مسماراً مسماراً، برغياً برغياً، كتب حروفها حرفاً حرفاً، وضع ألوانها لوناً لوناً، زخرف إطلالتها زخرفة زخرفة، انتهى من لمساتها النهائية لمسة لمسة.

كل واجهة في هذه المدينة تحمل نسمةً من روحه، يلمس مدى تقدير الناس له وهم يمضون بجانبه، يلقون عليه السلام وكأنه مَعلم أثري من معالم مدينته:

ـ كيف حالك أستاذ ألماظ؟
ـ هل تلزمك خدمة فناننا القدير؟
ـ نوّر المكان بك أستاذ.
البعض يقبّله، البعض يصافحه بحرارة، البعض يرغب أن يحظى بالمسير ولو بضع خطوات برفقته، البعض يأخذ صورة تذكارية معه، البعض يقف بسيارته مصرّا أن يأخذه حيث يريد.
عندئذ يخرج هاتفه الخلوي ويستمع إلى الأغنيات المحببة إليه عائداً أدراجه إلى البيت منشرح الصدر.
أية مدينة أخرى يمكن لها أن تحقق له هذا التألق الاجتماعي سوى هذه المدينة التي غدت جزءاً منه، وغدا جزءاً منها؟ حفظ كل دكان، كل

رصيف، كل زقاق، كل حي، كل شارع فيها، كأن لا مدينة تصلح أن يقيم فيها سواها.

تغمره مشاعر مودة الناس وتقديرهم لشخصه، لفنه، لتاريخه، لسلوكه، لبعض مواقفه الإنسانية والاجتماعية التي ترفع من شأنه في أنظارهم فيتمتم في سرّه: عندما يخسر الإنسان محبة الناس، لا يكسب شيئاً بعد ذلك، وعندما يظفر بمحبة الناس، لا يخسر شيئاً بعد ذلك.
كم تغمره مشاعر النشوة وهو يرى الأصالة التي تأبى الانحدار في جواهر الناس من حوله رغم كل مظاهر التشويه والابتزاز والتآمر التي مورست عليهم.

ها هو معدن الإنسان البالغ الطيب، البالغ النضج، البالغ الشجاعة، البالغ التسامح، البالغ التلقائية، البالغ الصبر يحقق ظهوره وتفاعله.
لقد أزاحت الأزمة العاصفة النقاب عنهم وعن روح الحقيقة، ودفعتهم إلى قوة التعاضد والتكاتف، وقد كان الرهان شطر قوة التشرذم والتفكك النسيجي في بنيته.

يتمتم في قرارة نفسه كما لو أنه ينشد نشيد الإنسان الأزلي: لا نحتاج إلى شيء قدر حاجتنا إلى روح الحكمة، كل خلاف يمكن علاجه بالحكمة، كل بغضاء يمكن علاجها بالحكمة.
عندما يدخل العنف من الباب، تخرج الحكمة من النافذة.
عندما تدخل الحكمة من النافذة، يخرج العنف من الباب
الحب، لا شيء لنا غير الحب، لا سلاح لنا غير سلاح الحب، لا قوة لنا سوى قوة الحب، لا حصانة لنا سوى حصانة الحب،
لا منعة لنا سوى منعة الحب، لا رصيد لنا سوى رصيد الحب، لا مستقبل لنا سوى مستقبل الحب.
الحب الذي يمدّ قلوبنا بطاقة التسامح ويجعلنا أكثر قرباً من بعضنا البعض، أكثر استيعاباً لبعضنا البعض، أكثر انفتاحاً على بعضنا البعض.
دوماً عليك أن تسأل نفسك يا ألماظ: مَنْ أنا لأعاقب غيري؟

عليك أن تعاقبَ نفسك لمجرد أنك فكرت أن توجه عقاباً لغيرك، ثم تقول: يمكنني أن أصفح عن غيري.
عليك أن تكافئ نفسك لمجرد أنك فكرت أن تصفح عن غيرك، لن يكون بوسعك أن تكون إنساناً، لن تفوح رائحة الإنسان منك إلا إذا أنس الإنسان إليك، إلا إذا استكان الإنسان إليك، إلّا إذا أمن الإنسان إليك بماله وسره وناموسه.

منذ عدة أيام في ساعة متأخرة من الليل، وهو يسهر مع زوجته يسمعان أزيز الرصاص من أماكن قريبة وبعيدة، قال لها بحرقة: إننا نعيش في ركن محفوف بالمخاطر، كل واحد منا يقف على لغم موقوت مخفي لا يعرف متى سينفجر به ويحيله مع آماله وتطلعاته إلى ركام.
عدنا يا عزيزتي إلى وقائع الجاهلية الأولى، كأننا في مدينة شبحية لا أحد يعرف فيها متى تمتد يد إليه فتخطفه.
ليست هناك نكسة تقع على الإنسان أقسى من فقدان الشعور بالأمن وهو في ظهراني موطنه، يرى أسرته تتعرض للقصف دون أن يكون قادراً على منع ذلك، أن يفر لاهثاً، لا من بيته فقط، ولا من مدينته، بل من بلاده كلها، ولا يسترد أنفاسه إلّا عندما يرتمي على ظهره في خيمة تكون ملاذه الوحيد من موت حتمي، خيمة بدائية في صحراء يكون فيها لاجئاً، وهو ما يزال يرتعد خوفاً أن تمتدّ يد شبحية فتطاله حتى وهو خارج موطنه في تلك الخيمة البدائية المهجورة.

لقد شاهدتُ يا تُقى أسوأ ما يمكن لإنسان أن يراه، شاهدتُ بأم العين كيف أن إنساناً وقف قبالة إنسان، أطلق عليه النار، وأرداه قتيلاً كما لو أنه اصطاد عصفوراً، سمعتُ أن شخصاً قنص طفلاً من إحدى الطوابق وهو يتناول جعة، ويدخن الغليون.

لم أكن أعلم أن إنساناً يمكن له أن يحمل كل هذا الحقد الأعمى، ونزعات الشر القاتمة ضد إنسان آخر، لم أكن أعلم لماذا يحمل هذا الإنسان كل تلك المشاعر السوداء تجاه إنسان آخر يتقاسمان نسمة الحياة المؤقتة معاً كما لو أنهما ضيفان خفيفان في ربوع البطحاء.

بحثت كثيراً، تأملت طويلاً، فكرت ملياً دون أن أعثر على سبب يقنعني أن القاتل يمكن له أن يتلمّس لحظات سعادة طبيعية، يمكن له أن يعود إلى بيته سعيداً منشرح الصدر يشارك الناس مشاعرهم ومناسباتهم الإنسانية الطبيعية، وهو يحمل إثم قتل إنسان، أطلق عليه النار، فأرداه قتيلاً، ولم يكن له أن يقدِم على ذلك قبل أن يجرّد نفسه من كل مزية من مزايا عطر الإنسان.

إنه كائن اكتسب مرتبة اللا احترام بتفّوق وجدارة عندما استطاع أن يطلق الرصاص على إنسان بكامل حيويته، وأحلامه، وعلاقاتِه الإنسانية والاجتماعية، فأرداه
قتيلاً.
لم يسلبه علبة تبغه، لم يسلبه محفظته، لم يسلبه هاتفه الخلوي، لم يسلبه بيته، لقد سلبه حياة بأكملها، عمراً بطوله وعرضه.
أصوات الرصاص تبث الرعب في أوصال الكبار والصغار، الأيدي التي تمتد لتخطف الناس من الطرقات، تسبب الرعب للآباء والأمهات والأبناء.
إننا يا سيدتي نعيش في حقل ألغام، نخطو خطوات محفوفة بالمخاطر.

أحياناً يشكر الأزمة العاصفة التي أوضحت له هذه الحقيقة، وأزاحت الغبار عن ذهب الناس رغم كل تلك الخسائر الجسيمة في النفوس، في البنى الفوقية، والوسطية، والتحتية، رغم كل ما حلّ من دمار، من صرخات الأمهات، من التهجير، من ألوان الفاقة، من إظهار حجم الشراسة التي يمكن لإنسان أن يمارسها بحق أخيه الإنسان عندما يتجرّد من نزعته الإنسانية ويتحول إلى كائن عدواني مسعور بامتياز.
لا أحد يعلمُ ما الذي حدث وأي إعصار هبّ على البلاد والعباد.
غدا الناس في دوامة غامضة من أمرهم، لا أحد يعلم الحقيقة المتوارية، كل شيء يكتنفه الغموض.
مقتل مسؤول رفيع الدرجة يكتنفه غموض، مقتل طفل بريء عائد من مدرسته يكتنفه غموض، مقتل أمّ ذاهبة لتشتري خبزاً لأطفالها يكتنفه غموض، مقتل طبيب في عيادته يكتنفه غموض، حتى موتُ إنسانٍ بشكل طبيعي على فراشه غدا يثير شبهة.

* * *

أغمضَ عينيه في محاولة للنوم، وهو يشعر بدوَّارٍ في رأسه من شدّة التفكير إلا أنه لم يفلح، فنهض ثانية وهو يشعر بأنه لم يعد بحاجةٍ إلى النوم، راوده إحساسٌ بأن الليل طال كثيراً، وأن الظلمة أشدّ حلكة.
استطاع أن يتلمَّس زوجته، ثم ابنته، ثم ابنه، ثم انتصب واقفاً على قدميه يلقي نظرات إلى البيوت المنتشرة من حوله، فأدرك حينذاك أن الكهرباء مقطوعة، وبدا له أنه في عمق صحراء مظلمة، لم يتمكن من رؤية ما كان يراه سابقاً عندما يقف على السرير ويلقي نظرات إلى اتساع الأبنية من حوله.
انتبه بأنه لم يسمع أصوات انفجارات، أوعيارات نارية لأول مرة منذ اشتعال الحرب.
أخذ يتلمس طريقه حتى نزل من السرير، وبدأ يهبط بتؤدةٍ ورفقٍ درجات السلم كما لو أنه شبحٌ منبثقٌ من عمق الظلمة.
استطاع بالكاد أن يفتح باب الصالون، ثم يدلف المطبخ.
امتدت أصابعه إلى القداحة، وراح يوقد عيناً من الغاز ملتمساً بعض الإنارة.

لا يدري في تلك اللحظات لماذا أحس بوخزة جوع وشهية لتناول لقمة سريعة ريثما يلج الصباح ويتناولون طعام الإفطار الشهي ذي الطقس الصباحي الخاص بتلك الوجبة حيث ترتفع أصوات طفليه، تصرخ بهما تُقى، توبخهما أحياناً، وهو يتأمَّل جمالية ممارسة الأطفال لأبعاد ومزايا طفولتهم فيتمتم لها: دعيهما يحققان طفولتهما يا تُقى، نحن ليس بإمكاننا أن نفعل ذلك لأننا تجاوزنا عتبات الطفولة ولم نعد أطفالاً، غداً عندما

يكبران لن يفعلا ذلك لأنهما سيجتازان مرحلة الطفولة، وعند ذاك سيمنحان أطفالهما المجال كي يحققوا طقوس طفولتهم.
ثم يسترسل قائلاً:
إن لم يبكِ الطفل كثيراً وهو صغير، سوف يبكي كثيراً وهو كبير.
إن لم يعبث كثيراً وهو صغير، سوف يعبث كثيراً وهو كبير.
إن لم يثرثر كثيراً وهو صغير، سوف يثرثر كثيراً وهو كبير.
إن لم يُصَب كثيراً وهو صغير, سوف يُصاب كثيراً وهو كبير.

تعلّق تُقى وهي تضرب يد أحدهما وتقول بحنق: وإن لم يُضرب على يده كثيراً وهو صغير، سوف يُضرب على بدنه كثيراً وهو كبير.

أخرج كسرة خبز وضع عليها ملعقة صغيرة من مربى الكرز، ثم وضع قطعة جبن بلدي، وصار يتناول عائداً أدراجه إلى الصالون.
دنا بالقداحة من ساعة الحائط، أذهله ما رأى، حدّق بإمعان غير مصدق ما وقعت عليه عيناه، ركّز نظره وسط ضوء القداحة المتراقص على العقارب بدقة بالغة التركيز، تناهت إلى سمعه التكّات.
كلُ شيءٍ على ما يُرام ومثير للدهشة: السابعة؟
همهم وهو يبتلع اللقمة الأخيرة: أي سابعة هذه المجنونة ابنة المجنونة ؟!
ثم استأنفَ مسترجعاً بعض التفاصيل التي سبقت نومه: نمنا عندما بلغت الساعةُ الواحدة ليلاً على وقع أصوات العيارات النارية، والسابعة التي تليها، تعني طلوع النهار!
بغتة لسعت إصبعه حرارة، فأطفأ القداحة وعاد أدراجه إلى السلّم متلمساً الطريق إلى السطح.
استرخى في فراشه شارداً بما رأى.
لبث في الفراش نحو ساعة، وهو يتوقع أنه سيسمع صوت وليده الذي ستضعه تُقى في أية ساعة متوقعة، حيث قالت القابلةُ التي تقطن في حي مجاور: يمكن أن يحدث ذلك في أي وقت، أنا على أتم الاستعداد للمجيء مهما كان الوقت متأخراً، هذا واجبي ومصدر رزقي.

أحسَّ بشيءٍ من الرهبة، هذه الرهبة التي أنفضته ليستوي قاعداً في الفراش وقد خرج منه صوت أبح مذعور: تُقى.. تُقى
لم تسمع صوته، فنادى بنبرة أعلى: تُقى.. تُقى.. يا تُقى.

عند ذاك بدأ نجد ينشج، ثم بعد قليل أخذ يتعالى نشيجه وهو يتمتم: ماما.. ماما.. استيقظت على وقع صوته، وغدت تهدهده كي يعود إلى نومه, لكنه قال: أنا جائع.
نهضت الأم بتثاقل المرأة الحامل التي هي على وشك الولادة، وقد خرجت منها نحنحة: كأن الكهرباء مقطوعة، كم هي الساعة الآن؟

دعته في بكائه تاركة السرير، هبطت السلّم برفقٍ وراحت تمد يدها إلى القداحة، أشعلت عينين من الغاز كي ترى ما حولها، أحضرت صحناً من اللبن، أفردت فيه بعض الخبز، ورشته ببعض السكر، ثم اقتربت بالقداحة من الساعة.
بعد لحظاتٍ صعدت السلّم وقد استبد بها ذعرٌ شديد!
جلست تطعم ابنها الذي ركن إلى صمتٍ وشرع في تناول الطعام، بعد قليلٍ التفتت إلى زوجها المستلقي في فراشه وهتفت بنبرات وجلة: ألماظ.. ألماظ.. تناهت منه نبرات متثاقلة: ماذا يا تُقى؟
قالت: رأيت عجباً في ساعة بيتنا.
قال: أي عجب؟
قالت: عندما نام الأولاد، ألم نسهر حتى الواحدة ليلاً؟
قال: أجل
قالت: ساعتنا الآن تشير إلى الثامنة والنصف، هل عادت العقارب بها إلى الوراء، أم تقدمت إلى الأمام، أم أن يداً شبحيةً لامستها؟!
قال: الجواب عند جمعات.

استغربت لهذه الإجابة، ثم مطت حاجبيها وقد صدرت منها بحة: وما دخل أخي بساعة بيتنا يا أمير؟!
قال: اتصلي به، واسأليه عن الساعة.
قالت: دوماً أظن بأنك تستهزئ بي، أو تأخذني على قد عقلي، ولكن عندما أتحقق يتبيّن لي بأنك جاد.

قال: لا توجد مشكلة عزيزتي، مرة جديدة تُضاف إلى تلك المرات.
أخذت تمشي بحذرٍ هابطةً درجات السلّم، أوقدت القداحة، ومدت كفها إلى سماعة الهاتف لتتفاجأ بأن الحرارة منفصلة.

عادت أدراجها بذات الحذر خشية أن ترتطم بشيء، وهي تقول بنبرات تحمل معالم الخيبة: هاتفنا مفصول.
قال: انقطعنا عن العالم، لم يبق لنا غير الجيران.
عندها رفعت ميرهان رأسَها وجلست في الفراش، قبّلتها أمها وقالت: هذا ليس وقت مزاحك يا ألماظ، ثم استدركت الأمر فقالت: أعتذر، لكن ماذا تعني حبيبي؟
قال بشيء من الاتزان: حان وقت تناول طعام الإفطار.

قالت: أأنت رائق للمزاح في هذا الليل؟ ثم استدركت قائلة: لا تؤاخذني حبيبي خلقني الله هكذا، معك حق، أنا أيضاً يقرص الجوع معدتي.
قال: لأننا تأخرنا عن موعد تناول الإفطار
قالت: ولكننا في الليل، ولم يطلع الضوء بعد.

قال: لكن الساعة تشير إلى التاسعة
قالت: معك حق، هي ليست غير تاسعة الصباح، والدليل أنني جائعة، ولو كانت قد عادت، لكنت الآن شبعانة.
صمتت قليلاً، ثم أضافت: غريب يا ألماظ، لم نعد نسمع أصوات الرصاص.

عندئذ نهض واقفاً على قدميه، أمسك بيدها، واتجها إلى الحائط المشرف على الشارع، وقعتْ أنظارهما على رؤوس وأجساد كما لو أنها أشباح.
قالت: أجل، لم يبق لنا غير الجيران، صحيح ما تقول.

حينها نادى ألماظ بصوت شبه مرتفع: يا أبا بيار هل أنت يقظ؟
ارتفعت قامة جاره /بيشوار/ تسبقه إجابته: إي يا جاري أنا يقظ
قال: كم الساعة عندك يا جاري؟

قال: سألتني السؤال الذي أريد سؤاله لك يا أبا ميرهان، لأن ساعتي على ما يبدو معطلة رغم أن عقاربها تشير إلى العاشرة.
قال: لا شيء بها يا أستاذ بيشوار، ساعتي أيضاً تشير إلى ما تشير إليها ساعتكِ. عندئذ تعالى صوت جار آخر من أحد الأسطحة: ساعتنا أيضاً تشير إلى العاشرة.
بعد لحظات بدأت قاماتٌ تظهر في الشارع وسط العتمة الحالكة تشير إليها أضواء يحملها البعض، إلى جانب أضواء سيارات أخذ أصحابها يجوبون بها في الطرقات.

نزل ألماظ إلى الشارع وانخرط وسط قامات الجيران الذين تجمهروا، وبدأ كل واحد يسأل بذعر عما حدث بشأن الساعة، ثم يلتمّون في مجموعات متفرقة، يسلطون الأضواء على ساعات أيديهم الصغيرة، فيتأكد لهم أن الميقات واحد، لكن الذعر يتبدّد من نفوسهم عندما يدركون أن أصوات الرصاص، والانفجارات اختفت من الأجواء، وكأنها لم تكن.

تعالت أصوات متداخلة من الجموع: هيا يا جيران نذهب إلى الحارات المجاورة.
تدافعت الأجساد خارجةً من الحي صوب أحياء أخرى حيث التقوا بالناس الذين يقفون في الطرقات على جناحَي الحيرة والقلق.
لاشيء غير الليل الذي بدا يبث الفزع في النفوس بعد أن تأكد لهم بأنه ليل غير طبيعي أحدث خللاً في نفوسهم، وقلّب بهم كل الموازين.

عندما بلغت الساعة الثالثة دون أن يدروا أية ثالثة هذه، عادوا إلى بيوتهم ليطمئنوا على أسرهم، عادوا بوجوه شاحبة، وحناجر جافة، وقلوب وجلة وهم يرفعون أبصارهم إلى الأعلى لينظروا إلى ظلام قاتم لا بصيص للضوء فيه، ولا شيء يخفف عنهم سوى غياب أصوات الرصاص.

حين دلف ألماظ باب البيت هرعت إليه تقى مستفسرة: ماذا رأيت يا ألماظ؟

قال: رأيت أن الساعة هي الآن الثالثة والنصف عصراً، وقد تأخر بنا ميعاد الغداء.
قالت: هل هذا وقت مزاحك يا ألماظ؟ ثم استدركت قائلة وهو يبتسم ويصغي إلى رعشات نبرات صوتها: لا تؤاخذني حبيبي ـ خلقني الله هكذا ـ معك حق.. كل الحق.. أنت رجل واقعي وعليّ أن أتعلم منك كيف أكون واقعية ، وأؤمن بوقائع الأمور.

الساعة هي الثالثة والنصف عصراً، وإن لم تكن ثالثة ونصف العصر، فأي ثالثة ونصف تكون؟
ثم قالت: وما تقول في غياب أصوات الرصاص؟
قال: إذا طال الأمر هكذا، ستكون الحرب قد انتهت.
قالت: ياه، يا لروعة هذه العبارة: الحرب انتهت، هل يمكن يا ألماظ أن تنتهي الحرب بالفعل في بلادنا، ونعود كما كنا؟ يعود الناس الذين هجروا بيوتهم، يُعَمَّرُ ما دمّرته الحرب.
لفت نظرَه الضوءُ الذي يتراقص وهو ينظر إلى عائلته الصغيرة جالسة، فسارعت تقى في القول: جارتنا أم بيار - كثر الله خيرها - أرسلت لنا مع ابنها بيار شمعتين.

تخيَّل الفارق بين أن يجلس الإنسان في كبد العتمة، وبين أن يجلس في كبد الضوء، خطر له حينئذ أن العتمة هي الأصل، لأن الضوء دوماً عندما يدنو، يبدّدها، وعندما يغادر، تعود العتمة إلى ما كانت عليه متربعة في أوج حلكتها.
لكن العتمة مهما بلغت من حلكة، فإنها لا تستطيع أن تقاوم الضوء، لأنها ثابتة، ولأن الضوء متحرك، وهو الذي دوماً يتسلط على كبدها، ثم يغادرها ويتركها في شأنها.

في تلك اللحظات خطر له أن الأرض كرة غارقة بمجملها في حلكة ظلام دامس، عندما يتعرض شطر منها لأشعة الشمس، فإن ظلمته لا تجسر على مقاومة السطوع، فتتبدّد ريثما تجتاز أشعة الشمس ذاك الشطر، لتعود جدائل الظلمة باسطة أذرعها، مهيمنة على مواقعها لحظة لحظة مترافقة مع لحظات ابتعاد خيوط الشمس.

خطر له وهو ينظر إلى الشمعة، ويقارنها بالشمس، كما يقارن بيته بكوكب الأرض، أن هذه الشمعة عندما تنطفئ، سوف يعود البيت إلى أصله وثباته المظلم.
لذلك يأمن الإنسان لبصيص الضوء، ويأنس به، وعندما ينام يترك في حجرته بصيصاً من ضوء بواسطة نواصة خافتة، حتى لا يغمض عينيه على هول الظلمة ويفتحهما على وحشتها.
إنه يستلقي في فراشه، وقبل أن يرقد يلقي نظرات إلى ما حوله ثم يغمض عينيه، وعندما يفتحهما يريد أن يرى ويلمس ما حوله، ولا يفتحهما في قلب عتمة لا يرى ولا يلمس فيها بصيصاً لضوء.

عندئذ يمكن له أن يسحب الغطاء إلى قمة رأسه لأنه يكون متأكداً أنه لمجرد إزاحة الغطاء عن عينيه سيرى ما حوله في ثقة اطمئنانية بالضوء الذي يجعله يرى ويلمس، ويجنبه أي لحظة شعور بدرجات الفصام وهو لا يرى نفسه، ولا يبصر شيئاً حوله.

إنها مقارنة بمدى تعلقه بالحياة هذه المقارنة التي تكون متوازية مع مدى ميله إلى الضوء، ومدى ميله إلى الظلمة، فتقاس درجات المقارنة هنا حتى من خلال مساحة ضوء النواصة حيث تكون شديدة الخفوت، أوساطعة قليلاً، أو أعلى درجة، أو متوسطة، ووفق ما تكون في درجات الخفوت أو السطوع يقاس تفاؤله بالحياة، أو تقاس مدارج نزعته التشاؤمية.

دخل ألماظ المطبخ، تناول حبة بندورة كبيرة الحجم، وأخرج رغيفاً من الخبز، قعد في المطبخ يرش الملح على حبة البندورة، يتناولها كوجبة غداء بعدئذ طلب من زوجته إعداد إبريق شاي.
جلسوا جميعاً في الصالون يحتسون الشاي على ضوء الشمعة حتى غلبهم النعاس، ونام كل فرد في الركن الذي يجلس فيه.

استغرقوا في النوم جميعاً، ولم ينهضوا إلّا على سماع طرقات شديدة بدأت تنهال على الباب، عندئذ لم يعلموا كم من الوقت أمضوا في النوم، ولم تعد عقارب الساعة تشير إلى ميقات بعينه.
قالت تقى: خيراً إن شاء الله.. مَن يطرق علينا باب بيتنا الآن؟!
ثم صمتت عاجزة عن تحديد الوقت، أهو متأخر من الليل؟ أم متقدم؟ أهو عتمة النهار؟ أم عتمة الليل؟
تمطمط ألماظ في ركنه وهو يفرّك عينيه، وما لبث أن نهض بتكاسل، فترامى إلى أسماعهم صوت جارهم بيشوار: أأنت في البيت يا أبا ميرهان؟
عندئذ انشرح صدر تقى وهي تسمع صوت أم بيار مع زوجها.

تقدمت من جارتها المحببة لديها و قادتْها إلى حجرة وهي ترتعد وتبكي فزعاً، هناك احتضنتا وتباوستا، ثم جلست شيندار إلى جانب صديقتها وهي في حالة من الهلع الشديد.
يقول ألماظ بأن الحرب ربما تكون توقفت.
قالتها تقى وهي تنظر إلى صديقتها.
قالت شيندار: لم نعد نسمع أصوات الرصاص، هل سنعود إلى ما كنا عليه يا تقى، هل بالفعل ستنتهي هذه الحرب اللعينة، أكاد لا أصدّق؟ بغتة ككابوس؟
قالت شيندار: سكون الظلام أهون علينا من أزيز الرصاص.
أحسست تقى بشيء من الطمأنينة والأمن بحضور صديقتها، وكم تمنت فيما لو دخلت ماما نسيمة من الباب بشكل مفاجئ، كانت ستنهض وتلقي نفسها في حضنها وتبكي.
ماما نسيمة تعني لها الشعور بالأمن والقوة، عندما تكون بالقرب منها، تشعر بشجاعة.
كانت تتوقع أنها ستقدم بسبب إشرافها على الولادة، فقد اعتادت أن تكون بجانبها عشرة أيام كلما وضعت مولوداً.

عندما ولدت ميرهان، قالت لها: أعاهدك، وأعاهد أختيك تقية، وبارعة أنني سوف أمضي عشرة أيام بجانب مَن تلد لي حفيداً جديداً.

وصدقت في عهدها ، لأنها أمضت عشرة أيام وهي تنام في بيتها كذلك عندما ولدت نجد، وعندما ولدت تقية، وولدت بارعة، راحت تمضي الأيام العشرة في بيت كل واحدة.
ماما نسيمة التي تعيش في البيت مع جمعات وزوجته وأولاده، وديار، وزوجها طريح الفراش، تترك كل شيء وتأتي إليها قائلة : وكيف تتخيلين يا تقى أنني سوف أتخلى عن ابنتي وهي تنجب لي حفيداً؟ كيف تتخيلن أنني لا أكون معك؟

استأذنت صديقتها ذاهبة إلى المطبخ، بيد أن شيندار لم تتركها وهي تنهض معها متجهة إلى المطبخ حيث أحضرت إبريقاً من الشاي وحملته لجارها بيشوار الذي يملك صيدلية زراعية اشتراها بعد ثلاث سنوات من تخرجه في كلية الهندسة.
حيث كان يدرس في كلية الزراعة، وعندما تخرّج لبث ثلاث سنوات دون أن يتمكن من العثور على وظيفة حكومية كي يطمئن إلى فكرة الزواج وفتح بيت وإعالة أسرة.
عندها اضطر أن يعمل بموجب عقود متقطعة في بعض المديريات الزراعية الحكومية حتى تعرّف على شخص يملك صيدلية زراعية طلب إليه أن يديرها مناصفة، عندئذ استقر في عمله وأقدم على الزواج من شيندار دون تردد.
لبث بيشوارعلى رأس عمله بجد ونشاط، وبعد سنتين أخبره صاحب الصيدلية بأنه لو رغب في شرائها سوف يبيعها له لأنه أولى بها.
عند ذاك اضطر أن يقترض قرضاً من المصرف بضمانة الصيدلية وكفالة موظفين ثابتين.
ثم اضطر أن يقترض ما تبقى من قيمة الصيدلية من بعض أقربائه وأصدقائه، ولم يجد نفسه متحرراً من الديون قبل ست سنوات من شرائها.

قال وهو يتناول الشاي من يد تقى: ليل طويل غريب الأطوار يا أم ميرهان
قالت : أمر محيّر يا جارنا!

استدارت عائدة إلى جارتها، فقال ألماظ: المشكلة أن جميع وسائل الاتصال من هاتف خلوي، وأرضي، وإنترنت، وتلفاز، ومذياع، منفصلة عنا، ولا نعلم ما الذي يجري من حولنا، سوى أننا لم نعد نسمع أصوات الرصاص، والانفجارات، ولم تعد الطائرات تقصفنا ببراميل متفجرة.
ثم صمت قليلاً وأضاف: أظن لو بقي الأمر على هذا النحو، سوف ينفدُ وقود السيارات، لأن محطات المحروقات لا تستطيع أن تعمل بدون كهرباء.
يمضي بنا الوقت كأنه لا وقت، نمضي بحلكته كأننا عميان، فقدنا الرغبة في عمل شيء وسط غمار هذا التيه، تهنا عن أنفسنا، تاهت أنفسنا عنا.

ليلٌ مخيفٌ لا عهد لنا به، لا ندري إلى أي وادٍ سيفضي بنا، كأننا هجرنا في رحلة طويلة.. طويلة شاقة على متن قطارٍ ضريرٍ ضَلَّ طريقه حتى نال منّا السأم إلى مفاصل العظام، وخال لنا أننا في سجن وهو يمضي مهرهراً بنا وسط عمق صحراء قاحلة، ننتظر اجتياز خط الخطر كي نبلغ محطة الوصول، ليعجل كل راكب بتحرير بدنه من حلقات قيود القطار الرهيب.
يقف بانشراحٍ تحت الشمس، ينفض عن روحه آثار ضجر المكوث الاضطراري الشاق، ثم ما تلبث أن تنطلق به قدماه إلى حيث يشاء كما لو أنه طائر حرّ.

عندما ودّعه جاره، أحس بشبح الفراغ، تقدّم إلى باب غرفته، امتدت كفه مترددة إلى قبضته لأول مرة منذ حلول الظلام، انفرج شق الباب المحكم الذي لا يدخله غيره، فهي غرفته الشخصية التي تحتوي على كل ما يخصه في هذا العالم.
عندما يعود من العمل متعباً، يدخل الغرفة ويستلقي على ظهره وبعد أن يشعر براحةٍ، يقف أمام المكتبة، يقرأ جملاً من بعض الكتب التي يقلّبها بين يدَيه، يستمع من حاسوبه المحمول إلى أغنيات ومقاطع موسيقية أثيرة لديه، ينظر إلى لوحات كتب عليها بخطه أجمل ما قرأ وقد

زخرفها خصيصاً لعالمه الخاص هذا، ينظر إلى صور العائلة التي صورها بكاميرا جهازه الخلوي ثم يستعرض بعض مقاطع الفيديو.
يضغط على زر، تدلف على إثره تُقى برفق، يتأمَّل وجهها فتسري رعشة مودة في فؤاده.
عندما يود الطفلان الدخول معها إلى أبيهم، لا تأذن لهما بذلك لأنها تدرك أنه في محراب طقس خاص، وكذلك تعلم شيئاً من وضعه النفسي من خلال ما يطلب، فالمليسة تعني أنه يلتمس شيئاً من الهدوء النفسي، والشاي الأخضر يعني أنه يلمس شيئاً من اليقظة ليركز في أمر ما، والشاي يعني بأنه مستمتع بدخول طقسٍ ما، والقهوة تعني أنه في حالة تأمل، وطَبَق من مكسرات البندق واللوز مع كأس من عصير البرتقال يعني أنه مقبل على حدثٍ جديدٍ يخص رحلة عائلية قصيرة أو طويلة، داخل البلاد أو خارجها، داخل المدينة أو خارجها.
بناء على ذلك تراه يشير إليها السماح بدخول الطفلين، أو تأجيل ذلك.

لحظة فتح الباب، ومع مد الخطوات الأولى، ألفى نفسه منتصباً برهبة قبالة الرزنامة المعلقة على الحائط في لوحة قام بتصميمها خصيصاً لغرفته، وقد اعتاد أن يجددها كل سنة عندما يأتي برزنامة جديدة، حتى يبدو كل ما فيها جديداً كفراشات الربيع، كثياب العيد بالنسبة للأطفال الذين يسهمون في تفعيل إيقاع العيد حتى في نفوس الكبار.

عندما لا ترى عيناك يا ألماظ أطفالاً في غمرة احتفالهم بالعيد، فإن ذاك العيد لا يكون عيدًا بالنسبة إليك, عندما لا ترى أطفالاً في بيتك يبتهجون ببهجة العيد، فإن ذاك العيد يكون منطفئ الرونق، لذلك يلجأ الناس إلى أماكن مكتظة بأطفال يعيشون ويتفاعلون مع ذروة مشاعر استقبال العيد، يترددون إلى تلك الأماكن كي يتذوقوا نكهة عسل العيد في عيون وضحكات الأطفال.

هكذا تبدوا الرزنامة بالنسبة إليه، إنها حالة يعيشها، تشكل ركناً من أركان الحياة اليومية وهو يستمتع بمدّ يده إليها كل صباح ليدرك أن يوماً مضى، وأن يوماً جديداً أقبل، كوردة في حديقة تتمتع بخصوصية الحضور إلى جانب أخواتها.

يتمتم لنفسه: هكذا تتعلم من الحياة يا ألماظ، حتى تناول طعام بشكل مفرد، يختلف عن تناوله مع العائلة، ويختلف عن تناوله في بيت صديق، إنه طعام واحد بَيد أن طقس المكان يضفي لمساته على الطعام وعلى مُتذوّقه.

سرَت رعشة في أوصاله وهو يحدق في اليوم والتاريخ على إيقاع الضوء الخافت الذي يتراقص كعشرات الأشباح في عتمة الغرفة.
اندفعت رائحة الموت إلى أنفه وهو يحدق في شكل الرزنامة التي بدت أمام ناظرَيه كأنها جثة متفسخة، عند ذاك لم يملك نفسه من انهمار دموع غزيرة بدأت تتدحرج من عينيه، ومن النشيج الكسير الذي بدأ يصدر منه حتى تقدمت زوجته مرتعبة وهي تراه يبكي بنبرات صوته كما لو أنه طفل أصابه ألم شديد.
أشار إليها كي تدعه بمفرده، وحتى لا تفسد عليه حالته النفسية، انسحبت برفق دون أن تجسر على الابتعاد عنه وتركه بمفرده كأن شيئاً لم يكن.

لبثت واقفة خلف الباب، تستمع نشيجه المتدفق واضعة سبابتها بين أسنانها وهي تعض عليها بقوة وقد جحظت عيناها مرتعدة بكل أعضائها في حالة اضطراب شديدة رغم أنها أرادت أن تخبره بآلامها التي تعتقد أنها آلام مقدمة الولادة، فهي تعتقد بأن موعد الولادة الطبيعية قد حان، وعليه أن يتخذ الإجراءات المناسبة، وأولها أن يحضر القابلة، ثم يجلب ماما نسيمة التي تشم منها رائحة أمها.

لم تكن تعلم قبل أن تنجب مدى حاجة المرأة النفسية إلى وجود أمها بجانبها عندما تضع مولودها، لماذا ترغب في حضور أمها وهي تستقبل المولود، فتتولى العناية الأولية به، تغسله، تلبسه، تهتم به، وهي في تلك اللحظات لا تأمن لمخلوق على هذا المولود قدر اطمئنانها عندما يكون بين يدَي أمها، لكنها حُرمت من كل هذا، بيد أن ماما نسيمة التي تشم منها رائحة أمها تعوضها بجزء من هذه الأمومة، فتردد في نفسها: الخالة هي الأم الثانية.
الآن باتت تدرك بأن ذلك يكون بمثابة فرصة ثمينة لها كي تتخيل لحظات ولادتها، كيف كانت أمها تهتم بها عند الولادة، إنها تتخيل نفسها

من خلال مولودها في تلك اللحظات، فتنتابها نشوة كلما زادت أمها من اهتمامها وعنايتها بالوليد، والأم ذاتها تحرص أن تكون حاضرة على ولادة ابنتها حتى تنتشي بلحظات استرجاع ذكرياتها عندما ولدت ابنتها، وترى كيف أن هذه الابنة جلبت لها حفيداً، وهي في تلك اللحظات تشارك ابنتها آلام ووخزات المخاض، تشعر برضى عن هذه الابنة التي قدّمت لها حفيداً يجعلها تسترجع نحوه مشاعر الأمومة، ولكن هذه المرة بشكل مختلف وطعم مختلف ونشوة مختلفة يفوق في بعض لحظاتها مشاعر الأمومة، فكلمة /جدتي/ تكون أعمق وقعاً في نفسها أحياناً من كلمة /أمي/.

أحست تقى بآلام شديدة جعلت ابنتها ميرهان تتقدم إليها شاحبة، فأشارت لها ألا ترفع صوتها كي لا تزعجه في خلوته.
وعندما زادت آلامها زحفت بشكل بطيء حتى دخلت ذات الحجرة التي أنجبت فيها ميرهان، ونجد.
عندئذ أشارت لابنتها أن تذهب إلى أم بيار وتناديها.
بعد قليل دلفت أم بيار هلعة، وعندما رأتها في ذاك الوضع قالت: أين جاري ألماظ؟ صمتت تقى وطلبت إليها أن ترسل ابنها بيار على جناح السرعة بالدراجة الهوائية كي يجلب القابلة.
عادت شيندار إلى البيت متلكئة بخطواتها وطلبت من ابنها أن يحضر القابلة على جناح السرعة، ثم ما لبثت أن عادت أدراجها إلى جارتها.
في ذروة تلك اللحظات كم تمنت فيما لو كان حاضراً بجوارها كما في الولادتين السابقتين، بيد أنها حرصت على بقائه في خلوته.

إنه يشكّل كل عالمها، يبدو في نظرها شامخاً كجبل، قوياً لا يعرف الوهن درباً إليه، يمثل في نظرها ذروة الرجولة، تشم منه رائحة الرجل الحقيقي الحكيم الرزين الذي يمكن للمرأة أن تسند ظهرها إليه وتمشي برفقته مغمضة العينين.

أحيانا ينتابها إحساس أن لا قوة تفوق قوته، لا شجاعة تفوق شجاعته، لم يسبق لها أن حملت هذا الحجم الهائل من الاحترام لكائن سواه، حتى

إنها عندما تزوجته قفز إلى مخيلتها كيف أنها خجلت أن تتحدث بهاتفها الخلوي بحضوره، بل خجلت أن تحمل الهاتف وهو موجود بجوارها.

لم تكن تتخيل أنها تستطيع أن تتحدّث مع شخص آخر وهو مهيمن بكامل حضوره، بل عندما يكونان معاً لا تفكر بشيء سوى أن تنظر إليه وتترقب حركاته وتصرفاته وهو يأكل، يشرب، يرتدي ثيابه، يشاهد برامج التلفاز، يحدّثها، يطلب منها حاجة.

يعتريها إحساس بأنها تتعلم من كل حركة تبدر منه، من كل كلمة تصدر من فيه، منذ أيام قالت لأم بيار: تعلمتُ منه يا شيندار كيف أن الحقيقة تكون زينة وقوة الرجل، كيف أن المرأة لا تكون قوية أمام نفسها، وأمام المجتمع إلا إذا كان زوجها قوياً، وتبدو ممزقة أمام نفسها وأمام المجتمع كلما كان زوجها واهناً.

في تلك اللحظات كان ألماظ منتصباً قبالة الرزنامة كراهب يتخيل كم من الصفحات سيمزق، وما جدوى تمزيق الصفحات دون أن تشرق بمحتواها.
في الماضي كان يمدّ يده كل صباح إلى الرزنامة وهو يشعر بأنه يقطف وردة من حديقة السنة، كان كلما سحب صفحة، أشرقت أمام ناظرَيه صفحة يوم مشرق جديد.
اعتراه إحساس بأنه كان على وشك أن يرمي نفسه في قعر جب، فآثر التراجع إلى الخلف أمام إحساس بأنه عاجز أن يتكهن كم من الأيام مضت حتى يحدد اليوم والتاريخ، ثم إنه لا يعرف في أي وقت هو الآن سوى أنه يرفل تحت جنح ليل ثقيل.

بعد نحو ساعة حضرتْ القابلة وعندما أجرت لها بعض الاختبارات قالت بأنها ستباشر في عملية الولادة على الفور.
لم يستغرق ذلك وقتاً طويلا حتى تناهى إلى سمع ألماظ في غرفته صرخات ابنه. استغرب أول الأمر لِما سمع، وعندما تواصل النشيج وتعالى أدرك أن ذلك في بيته فخرج ليرى جارته شيندار تحمل الوليد في الصالون.

أحست المرأة بصدمة عندما رأته خارجاً من غرفته، بيد أنها أخفت معالم دهشتها وخطت إليه قائلة: مبارك يا جاري ألماظ، إنه ولد إن شاء الله يتربى بعزك.
قال: تسلمي يا أم بيار.
ثم تناول الطفل من يدها وقبّله، وراح يؤذّن في أذنه كما فعل مع طفليه السابقين.
عندها خرجت الممرضة من حجرة الولادة وأحضرت حقنة كي تحقنه.

استغل ألماظ تلك اللحظات فدخل إلى زوجته قائلاً: كيف حصل ذلك، لماذا لم
تخبريني عزيزتي؟
ابتسمت بوجهها الشاحب، فمال إليها ووضع قبلة على جبهتها.
في غمرة تلك اللحظات، مدت كفها إلى كفه، فتشابكت أصابع الكفين بشدة وكأنهما يعبران عن حجم القوة عندما يكونا معاً.
قال: إنه ابننا المرتقب الذي اتفقنا أن نسميه /إنشاز/.
ابتسمت قائل: إنه إنشاز.
في تلك اللحظات كم رغب لو أن الهاتف يعمل، أو أن السيارة لم تنفد من الوقود كما الحال بالنسبة لجميع السيارات التي تحولت إلى هياكل حديدية أمام بيوت أصحابها.
كان سيتصل بماما نسيمة ثم بأختيها تقية وبارعة ويجلبهن، لكنه أمام ذلك انطلق إلى قلب المدينة بواسطة عربة ركاب يقودها حصانان، بدأت تعمل في النقل الداخلي، حيث اضطر الناس للعودة إلى الحياة البدائية في نمط الحياة.
فور وصوله سوق المدينة، أقدم على شراء دراجة هوائية واتجه بها إلى ماما نسيمة، أركبها خلفه، وفي الطريق عرج إلى بيت تقية طالباً إليها أن تخبر بارعة وتحضرا فوراً إلى تقى.

عندما وقعت عينا تقى على ماما نسيمة، راودها إحساس بأن الشمس قد بزغت، وسعت إلى النهوض من الفراش، بيد أن نسيمة منعتها وطلبت إليها أن تبقى مستريحة.

مالت بفمها على خديها وصارت تقبلها وتضع رأسها في حضنها كما لو أنها طفلة.
قالت: مبارك ما جاءك وما جاءني يا بنتي.
قالت وهي تذرف الدموع: بارك الله لنا بك يا ماما.

عندئذ استأذنتهما شيندار كي تذهب إلى بيتها لتقضي بعض الواجبات ثم تعود، نهضت ماما نسيمة شاكرة إياها على العناية التي أبدتها تجاه جارتها.
مع مرور الوقت، بدأت تُقى تشعر بتحسّن واستقرار، بعد أن حضرت أختاها مع زوجيهما وأولادهما، وحضر جمعات مع زوجته تاركاً الأولاد في البيت.

تحلقوا جميعاً حول تُقى يتبادلون أحاديث الذكريات، ولدى مجيء شيندار اتجه الرجال إلى غرفة تاركين النسوة مع تُقى.
أبدت شيندار اعتذارها على التأخر بسبب بعض واجباتها المنزلية، لكن تُقى قالت لها: أتعبتكِ معي كثيراً يا جارة.
قالت: لا تقولي ذلك يا عزيزتي، هذا واجب.
عند ذاك قالت لها وهي تبتسم: بهذه المناسبة يا أم بيار نريد أن تتحفيننا ببعض الطرائف والأمثال الشعبية.
ثم التفتت إلى النسوة قائلة: جارتي أم بيار شهيرة بحفظها للطرائف والأمثال.
قالت شيندار: أروّح بها عن نفسي أحياناً، منذ الصغر كنت أميل إلى سماع ذلك من أفواه الناس، وقد استطعتُ أن أحفظ غالبية ما سمعت.
صمتت قليلاً، ثم قالت مبتسمة: مهما كان حال المرأة ميسوراً، تبقى تحب أن يُكرمها الرجل بالهدية، فتقول: /أنا غنية، وبحب الهدية/.
وذات مرة سمعتُ امرأة تقول عن بنت قصيرة القامة، مكتنزة الجسد: /بنت مثل الفلة المكبّسة/.
ومما أذكره من أيام الطفولة ما كانت تقوله امرأة تزور أمي: /اللي أمو بالبيت، خبزته مدهونة بزيت/.
و/اللي أمو خبّازة ما ينام جوعان/.

وعن العلاقة بين المرأة وضرتها من ناحية، وبينها وبين سلفتها من ناحية أخرى سمعتُ امرأة تقول: /مركب الضرايِر سار، ومركب السلايف احتار/.
وعندما تشتري جارة حاجة من البائع الجوال في الحارة، وتطلب جارتها إعارة تلك الحاجة تقول لها: /لا تزعلي يا جارة، البياع لسه بالحارة/.
ويُقال عن جمال البنت: /الحلوة، حلوة من فيقة منامها، والبشعة بشعة من طلعة حمّامها/.

* * *

بدأت الحياة تأخذ مساراً جديداً بالنسبة للناس الذين أسلموا للأمر الواقع وبدؤوا ينسجمون مع خصوصية واقعهم الجديد، حيث انقطع الطلاب عن المدارس، وفقد موظفو الدوائر الرسمية الأمل بفتحها بعد ترددهم في أوقات مختلفة ورؤيتها محكمة الأبواب، حتى المخابز الآلية التي دخلها عمالها عنوة كي يوفروا الخبز للناس توقفوا عن ذلك عندما نفذت المحروقات، وتوقفت محركات الكهرباء الاحتياطية بسبب نفاذ الشحن الكهربائي.

عند ذاك رأى الناس أنفسهم مجبرين أن يركّزوا على المخابز التنورية التي تعمل بواسطة عبوّات الغاز، لكنها أمام زحام الناس ونفاد الغاز بدأت تتوقف عن العمل بشكل متدرج، هذا التدرج الذي بدأ يسري مفعوله على بقية مقومات الحياة اليومية، مثل السيارات التي بدأت تختفي عن الطرقات بشكل تدريجي حتى لم يعد الناس يرون سيارة واحدة بسبب نفاد الوقود، وحتى التي كانت تعمل على جرّات الغاز بدلاً عن الوقود توقفت بسبب نفاذ الغاز.
أمام هذا الواقع الذي فرض نفسه بقوة على نمط الحياة، بدأت مظاهر الحياة السحيقة تعود لتتفاعل مع إيقاع الحياة اليومية، وتفرض سريان مفعولها في إيقاع الحياة المعيشية اليومية.
بات الناس يستخدمون زيوت الخضار والفاكهة لإنارة المنازل، وإنارة أماكن العمل، حيث يسكبون الزيت في عبواتٍ، ويثبتون فيها فتيلاً قطنياً، ثم يشعلون رأس الفتيل لتلبث النار عالقة ما بقي الزيت في قعر العبوة.

كان ذلك بمثابة إنجازٍ هامٍ بالنسبة إليهم رغم ما تخلّفه هذه العملية من شحّار يجعل أسقف البيوت والمحلات كسنيجِ خيوط العنكبوت، وكذلك يُسبب حرقةً للعيون جراء الدخان القاتم الكثيف، لكن ذلك أراحهم من الشموع التي نفدت من كل أرجاء البلاد بسبب كثافة استخدامها، والتوقف عن صناعتها.
ثم بدأت حركة الخيول والحمير والدراجات الهوائية تتكاثر في الطرقات, وقد تحَّولت إلى وسيلة التنقل الفاعلة، فَمَن كان يملك سيارة، غدا يملك دراجة أوحصاناً أوحماراً يقضي عليه مشاويره، بعد ذلك أخذ البعض يستخدم الخيول كوسائل نقل داخلية وخارجية عامة، ثم انتشر /الحنتور/ الذي بدأ ينقل الناس في طلبات خاصة.

عندئذ اكتشفوا أمراً هاماً ما كانوا على علم به، وهو أن الحياة يمكن لها أن تستمر دون زيت، وسمن، وغاز، ومكيفات، ووقود، وسكر، وهاتف، ودون برّاد، وسيارات، ودون شمس أيضاً.

مع مرور الوقت وانسجام الناس مع واقعهم الجديد بدؤوا يرون ما حولهم بشكل متدرج حيث ألفت عيونهم العتمة وأخذت عليها، وبدأت ترى بعض الملامح حتى أخذ الناس جميعاً يرون بشكل اعتيادي، فغدا بإمكانهم عدّ النقود وتمييزها دون الاستعانة بضوء، وصاروا يمضون في الشوارع سواء ركوباً، أو سيراً على الأقدام دون اصطحاب إنارة لأنهم باتوا يرون بعضهم ويتبادلون السلام فيما بينهم.

عند ذاك مالوا إلى فكرة تخفيف اللمبات في بيوتهم، واكتفوا بلمبةٍ واحدةٍ يُشعلونها بعض الوقت، أوعندما يحل ضيوف، أو في مناسبات، أما عندما ينامون، فإنهم يطفئونها دون تردد.

كل بيت غدا يملك تنوراً حطبياً، تستخدمه المرأة في صناعة حاجة بيتها من الخبز، أما الشقق فقد صنع سكان كل شقة تنوراً في الشارع بشكل متناسق بحيث تم تحديد المواضع التي أُقيمت فيها التنانير.

عندئذ بدأ الناس يكتشفون نكهة هذا النمط من الحياة، فهم يتحابون ويتزاورون ويتآلفون أكثر مما كانوا في أي وقتٍ مضى، يتبادلون الطعام الصحّي بشكلٍ أفضل، ينامون بشكلٍ أفضل، ولاحظ الناس بشكلٍ ملفتٍ أن الأمراض التي كانت سارية فيهم قد خفت وهم يعيشون في طقس معتدل حيث لا حرارة مرتفعة، ولا برد قارس، الأمر الذي جعلهم يستمرّون في حفظ مونتهم من الجبن الذي يضعونه في عبواتٍ كبيرةٍ يودعونها تحت التراب بجانب شجرة، أومساحة ترابية من البيت. أمّا بالنسبة إلى اللحم، فقد بقي الأمر على ما هو عليه، فيفتح اللحامون محلاتهم، كما أن بائعي الفروج استمروا في بيع الفروج للناس لأن المداجن، والمسامك، والمباقر لبثت مستمرة في عملها.

أحسس الناس بمزايا نمط حياتهم الجديدة حتى أن البعض بات يقول جهاراً: كم كنا حمقى! قبل أن ينفد الزيت بيومين كنا نظن بأن البيت سيُهدم علينا إذا خلا من الزيت، الآن اكتشفنا طعم البيضة المقلية دون زيت، طعم طبق البرغل، طبق المعكرونة، طبق الرز دون زيت.

يقول بعض آخر: كنا نظن بأننا سنموت إذا انقطع هاتفنا يوماً واحداً، أو إذا نفذ نفد المازوت أو نفد الغاز.
الآن نطبخ لحم العجل على موقد الحطب، ويا له من طعام لذيذ! بتنا نشعر بالأمان.
حتى إن شيندار عندما زارت جارتها تقى منذ يومين قالت لها: هذا الظلام بما فيه من معوقات للحياة، فإنه يحمل لنا رحمة.
لم تعد جرات الغاز تنفجر بنا، لم تعد السيارات تدهس أطفالنا، لم نعد نرى عائلة خرجت من البيت ولم تعد لأن حادث سير وقع معها، لم تعد الكهرباء تقتل الناس، ارتحنا من تسديد الفواتير التي لم تكن تنتهي.
هزت تقى رأسها قائلة: ولله معك حق يا جارتي، والأهم من كل ذلك أن الحرب اللعينة انتهت .

عندما بدأ المطر يهطل، وأحس الناس بشيء من البرد القارس، أدركوا بأنهم دخلوا فصل الشتاء، فأخرجوا ثيابهم الشتوية وبدؤوا في استخدامها، هيئوا أثاث بيوتهم لاستقبال فصل الشتاء فوضعوا المدافئ الحطبية، عندئذ استطاعوا أن يدركوا كم من الوقت مضى على ليلهم، فقد انتقلوا من فصل الصيف إلى الخريف، والآن يستقبلون أيام الشتاء الأولى.
بدا للناس أنهم استيقظوا للتو، استيقظوا بأبصار من حديد على أنقاض ماض أدركوا جيداً أنه زادهم حكمة، وزادهم تآلفاً وتوادّاً، لذلك لا يرى شخص شخصاً إلا ويعانقه معتذراً وملتمساً منه السماح.
أحس الناس جميعا بأنهم أخطؤوا بحق بعضهم البعض، لا يوجد أحد لم يخطئ بحق نفسه وبحق شخص آخر خلال سنوات الحرب الفتاكة التي وضعت أوزارها عن كواهلهم، وعلى ذلك لا يوجد شخص يمكن له أن يستثني نفسه من تقديم الاعتذار أو تقبله.
حين يتقابل شخصان في الطريق، يتباوسان فيقول أحدهما: أعتذر منك.
يجيب الثاني: وأنا أعتذر منك.
بدت لغة الاعتذار مقترنة بلغة السلام بين الناس سواء أكانوا على معرفة ببعضهم، أو كانوا غرباء.

أمام ذلك اقترح البعض أن تتخذ البلاد من بدء الشتاء مرتكزاً لتنظيم الوقت، لكن بعضاً أخر رأى أن مثل هذا التنظيم ما زال مبكراً، فالبلاد تحتاج إلى يقظة مستمرة وإلى وقت مفتوح كي يتمكنوا من إعادة بناء ما دمره نزاع الأخوة فيما بينهم.

عندما يجوع شخص فإنه يجلس ليأكل، وعندما ينعس وينام، سيكون غيره قد استيقظ من نومه، بذلك ستبقى الأسواق مكتظة بالناس، وتبقى المعامل في عملها المستمر وتلبث حركة البناء متواصلة كما هي عليه الآن، فأي شخص في أي وقت يستيقظ، يمكن له ببساطة شديدة أن يركب حماره الخاص، أودراجته الهوائية، أو يركب عربة يقودها حماران، أو يركب حنتوراً، ويتجه إلى حيث يريد ليرى الناس يقفون على رؤوس أعمالهم وجميع المحال مشرعة، هذه الميزة التي لن تكون ميسّرة إذا نُظِّم الوقت لأن الشخص قد يستيقظ ويتجه إلى السوق، فلا يرى محلاً واحداً مفتوحاً، ولا يرى عاملاً واحداً في عمله، بل قد لا يصادف شخصاً واحداً في طريقه، وكأنه يمضي في طرقات قرية مهجورة نزح عنها سكانها.

من جهتهم رأى الأطباء ميلهم إلى هذا الاتجاه، واتفقوا فيما بينهم على أهمية العمل لإعادة بناء الإنسان في البلاد، وقال طبيب قديم: إذا وضعنا بناءً في أيدي أناس مرضى، فسيحيلونه إلى خربة، وإذا وضعنا خربة في أيدي أناس أصحاء، فسيحيلونها إلى بناء.
غدا الأطباء على شكل أفواج يركبون حميرهم الخاصة ويتجهون إلى الناس في البيوت والمعامل والمحال والأسواق والمساجد والكنائس، وهم يقدمون الوعي الصحي والعلاج للناس.

من جهتهم أخذ أهل الأدب والتربية والحكمة يقومون بزيارات ميدانية إلى الناس، ويرفعون من مساحات الوعي لديهم, يُعزّزون فيهم مشاعر الثقة بالنفس؛ بدت البلاد وكأنها في مصح كبيرٍ، كلُ شخصٍ يُقدّم ما لديه من خبرةٍ للآخر كمحاولةٍ منه للاعتذار الكبير عَمّا وقع سواء منه أو من غيره، بَدَتْ لدى كل واحدٍ رغبة كي يخرج عن جلده، وينسى ما كان يحدث في نسيج هذا المجتمع، أدركوا أن مبدأ الحرب الأهلية، هي أكثر

ضراوة من مبدأ الحيوانات الشرسة في الغابات، هذا المبدأ الذي بدأ يُجيز لشخصٍ أن يخطف طفلةً من يد أمّها وهي تأخذها إلى المدرسة، ثم يتّصل بها ليطلب فدية، وعندما تقول بأنها لا تملك، يطلب منها أن تبيع البيت، وتفدي ابنتها بثمنه، وعندما تأبى ذلك، يرمي لها أشلاء ابنتها واضعاً الناس أمام خيارين لا ثالث لهما.
ثم تأتي جماعة لتخطف طبيباً من عيادته وهو قائمُ على رأس عمله يُسعف، أو يُطبب مريضاً، أو يُتصل به لإسعاف مريض، وعندما يصل، يُختطف في كَمينٍ نصبوه له، لقد جاء الطبيب طوعاً كي يُسعف إنساناً، حتى لو كانت طَريقة سهلة لاختطافه، فأمام استجابته كان على هؤلاء أن يتردّدوا لأنه لبّى نداءً إنسانياً لإنقاذ حياة إنسان وقد ترك عيادته ومرضاه مستجيباً.
حتى لو كانت طريقة سهلة لاختطاف طفلة، كان عليهم أن يتركوها أمام صرخات أمّها.
أية حالةٍ إنسانيةٍ متردّيةٍ هذه؟ هل كانت البلاد تستحق كل هذا، هل كان المجتمع يستحق كل هذا؟!

اكتشف الناس أنه ليس هناك أسوأ وأكثر روعاً من الفوضى الأمنية في مجتمع يسوده الجهل، عند ذاك تسود لغة الافتراس في أقسى وأعلى درجاتها.
تعلّموا درساً لن ينسوه، ويراودهم إحساسٌ أنهم مهما قدّموا لبعضهم بعضاً، فإن ذلك لا يتساوى بحجم الويل الذي سببوه لأنفسهم، حيث لم يقدم أحد من كواكب أخرى للقيام بذلك، كانوا من نسيج قماشة واحدة، يعرفون بعضهم البعض جيداً.
كان يمكن لأي شخصٍ أن يطلق النار خلسةً على شخصٍ آخر في محاولة انتقام.
كانت أصوات الرصاص في الليل والنهار ترعب الكبار والصغار حتى ضجر الناس الإقامة في هولٍ مريعٍ كهذا، ضجروا نمط الرعب وباتوا ينزحون عن أحب بقاع الأرض إليهم وقد أدركوا في تلك اللحظات أكثر من غيرها أن لا أحد يخرج من موطنه سعيداً، لا أحد يعود إلى موطنه حزيناً.

عندما يخرج المرء من موطنه، فإنه يخرج عن ذاته، وعندما يعود إلى موطنه، فإنه يعود إلى ذاته.
لذلك كانوا يلبثون على اتصالٍ دائمٍ مع أهليهم، يلبثون على تواصلٍ مع أخبار الوطن من خلال كل وسائل الاتصال لعلّهم يرون بصيصاً يبثّ فيهم أمل العودة إلى رحاب تلك البلاد التي هي مسقط الرأس، مسقط الروح، والحب.
الآن ها هم يذرفون الدموع ويعودون أفواجاً أفواجاً حتى بدأت بلاد الغربة تخلو منهم بعد أن كانت مكتظّة بهم، ظلام الوطن هو أحب إليهم من شمس الغربة، يعودون وهم يعانقون تراب الوطن، يعودون رغم أن الشمس خاصمت بلادهم ولم تعد تشرق عليها، بَيدَ أنّهم يلتمسون الأمن.
عندما يتوفّر الأمن، تكون هناك إمكانية للحياة والتطور، لكن عندما ينعدم الأمن، فلا شيء يغري بالبقاء بالغاً ما بلغ.
ها هم يعودون، وقد تخلّوا عن رفاهية الغربة، هاهم يعودون فرادى وجماعات وهم يركبون على ظهور الحمير، يعودون إلى مدنهم وقراهم وطرقاتهم، يعودون إلى ناسهم ومجتمعهم الحقيقي الذي ينتمون إليه.

من جهتها لبثت حركة العمار مستمرة ومتألقة معيدة البلاد بشكل متدرج إلى لمسات جمالية بحلة جديدة، اكتشف الناس وهم في ذروة عملهم طعم حب البلاد، اكتشفوا أنهم ما أحبوا بلادهم من قبل، ما شعروا بمسؤولية تجاهها، إنهم الآن يتذوّقون ويعيشون لحظات حب البلاد والمجتمع معاً، كل واحدٍ يشعر بأن بلاده هي بيته الكبير وقد تحوّل كل فرد إلى حارسٍ أمينٍ على البلاد.
حينها أحسَّ الناسُ بثراءٍ ماديٍ لم يشهدوا له مثيلاً من قبل، باتوا يرفلون بِرَغَدِ العَيشِ وقد تحوَّلت البلادُ إلى بستانٍ مفتوح.
من جهتهم رأى المحامون أن يغلقوا أبواب مكاتبهم بعد ترددهم إليها دون أن يطرق أحد تلك الأبواب، فلا أحد يتشاجر مع أحد، ولا أحد يعتدي على أموال وممتلكات أحد، ولا أحد يدهس أحداً بسيارته، لا أحد يدّعي على أحد؛ أصبح كل محام يركب حماره ماضياً في السوق وهو يمتهن مهنة أخرى، عندئذ رأى الأطباء أن يحذوا حذوهم، حيث تقلص عددهم بشكل كبير وحوّلوا عياداتهم إلى مهن أخرى.

حينها فقط بدأ الناس يدركون هول المأساة العظمى التي كانوا يعيشون في متاهتها،
كان البعض لا يتذوق اللحم في الشهر مرة واحدة، البعض لم يذق طوال حياته أنواعاً من الفاكهة التي كان يراها دون أن تخطر له فكرة أن يتقدم ليلمسها.
أدركوا أن كل ذاك الكبت كان ينعكس على سوية علاقاتهم الاجتماعية وإحداث شروخ في بنية روابط العلاقات الإنسانية والاجتماعية فيهم.

لم يكن هناك زواج سعيد بين زوجين، منذ اليوم الأول لزواجهما، وحتى يصبحا جدّين، كانت الشجارات والخلافات العائلية والاجتماعية كبديل وتنفيس عن هول معاناة الحياة اليومية، كانت الخلافات تتفشى بين الآباء والأبناء لتمتدّ إلى الأخوة والأخوات والأقرباء والجوار.
كان العهر متفشياً في قمة الأزمة.. تفاقمت الاعتداءات فيما بين الناس، كل شخص كان يشعر بلغم في قلبه، فكان اللجوء إلى حبوب الهلوسة والمخدرات والكحول كمحاولة أخيرة للتخفيف من وطأة المعاناة والحرمان وسوء التربية والجهل.

يذكرون النزعات العدوانية التي تفشت في نفوس شبابهم حتى تعددت الجرائم بين الجوار والأصدقاء والأقرباء.
الآن، كأنهم كانوا في حلم واستيقظوا.. يدركون أن بلادهم كانت بلاد مستشفيات، وصيدليات، وعيادات طبية، ومكاتب محامين، وثكنات عسكرية، ومبان حكومية.
كان الجميع يريد أن يرى مبرراً لحضوره ليستمر في عمله، كل يوم كانت الأعداد تزداد، أطباء جدد، صيدليات جديدة، محامون جدد، مبان حكومية جديدة، ثكنات عسكرية جديدة، فروع أمنية جديدة، أفواج جديدة من عسكر إلزامي.

كان على كل موقع أن يكتظ بالمراجعين حتى يثبت جدواه، كان الناس يتزاحمون على قصور العدل ومكاتب المحامين، وعيادات الأطباء والمشافي، والمخافر، والثكنات العسكرية، والصيدليات، والبلديات، والماليات، وكوات تسديد الفواتير.

الآن يستيقظون ليدركوا أن ذلك كله لم يكن له لزوم، يكتشفون أن لا أعداء لهم، لا خصوم لهم، لا مخاطر تهدد حياتهم، هؤلاء الشبان يحرسون الآن المجتمع، يتفاعلون مع بنية العلاقات الإنسانية والاجتماعية.
ذاك الذي كان مدمناً على المخدرات، أقسم بأنه لن يقربها مرة أخرى، وبات كما لو أنه مصلح اجتماعي، يعمل ويقدّم الحكمة للآخرين، يتزوج ويؤسس بيتاً جديداً في مجتمعه؛ لم تعد المشافي تستقبل جرحى حوادث سير ومشاجرات، لبثت قصور العدل والثكنات العسكرية والدوائر الحكومية كهوفاً محكمة الأبواب لا تلزم أحداً، بات الناس يتساءلون عن كل تلك الخيرات التي كانت تستهلكها تلك الأماكن التي كانت عبئاً على كد الناس وشقائهم، باتوا يلطمون وجوههم على ما كانوا فيه، كيف كان يسري ذلك عليهم؟
مئات الآلاف من الأشخاص كانوا يقبضون رواتب دون أن يكون لهم أي لزوم.
كانوا يمضون أوقاتهم في التدريب على أسلحة، على حراسة حجارة، حراسة ذخائر عسكرية، حراسة أشخاص، كانوا يمضون في لهو، ولعب، وخمول.

غدا ذلك دافعهم الأقوى نحو بذل قصارى جهدهم كي يُعيدوا بناء ذواتهم وبلادهم، فألفوا أبواب الحياة تنفتح أمامهم كما لم تنفتح من قبل حتى إن الناس من جميع بلدان العالم باتوا يرغبون في زيارة بلدهم.
أصبح ذلك مدعاة سعادة وحبور بالنسبة إليهم وهم يستقبلون أفواج السُيّاح، ويرحبون بهم، يقدمون لهم وسائط النقل المتاحة.
عندئذ رأى السُيّاح وبعض المراقبين من دول العالم ما أذهلهم وهم يكتشفون أن هذا الشعب الذي يعيش في ليلٍ طويلٍ بعد سنوات حرب فتّاكة، هو أكبر شعوب العالم رفاهية وغنى، وصحة، وتفاؤلاً في العالم، حيث تبيَّن لهم أن حصة كل شخص من تناول اللحوم تفوق حصة أي شخص أخر في العالم، كذلك الأمر بالنسبة إلى الفاكهة، والخضار،.واستخدام الثياب الجديدة، وكذلك الدخل السنوي الذي تجاوز دخل أغنى شعوب العالم.

هذا كله إلى جانب عدم وجود نسبة بطالة تُذكر، الأمر الذي جعل المراقبين يقترحون هذه البلاد كأغنى بلاد العالم، وأكثرها أمناً رغم الظلام، وشعبها كأكثر شعوب العالم رفاهية ورخاء واستقراراً.

أمام هذه التصريحات التي راجت في وسائل إعلام العالم بسرعة الريح، غدا الناس يتوافدون من مشارق الأرض ومغاربها حاملين معهم الأموال، ليمضوا إجازاتهم في ربوع هذه البلاد.
لم يقتصر ذلك على عامة الناس فقط، بل كان مدعاة للملوك، والرؤساء، والأمراء ليقوموا بزيارات ترفيهية إلى هذه البلاد، كي يلمسوا ويعيشوا خصوصية الحياة في ليل طويل، حتى شاع قول في أرجاء العالم بأن الذي لا يدخل هذه البلاد الغريبة التي تبدو كأنها تعيش في كوكب آخر في ليل طويل، كأنه لم ير شيئاً في الدنيا.

عندما يلج الرؤساء والملوك ربوع البلاد, ينقطعون عن العالم تماماً بسبب قطع الاتصالات، ووسائل السير، فيضطرون لركوب لحمير أو الخيول للتجوال،
وهم يعبرون عن مشاعرهم العميقة بالأمن والراحة والهدوء رغم عدم وجود بروتوكولات، واستقبالات رسمية، وحراسات مشددة لهم بسبب عدم وجود رئيس أو وجود مَن ينوب عنه في البلاد.

يمضون الأوقات دون أن يعلموا كم أمضوا، بيد أنهم يرغبون في البقاء وهم يتمتعون بركوب الحمير أو الخيول، والتجوال بها في عالم من الهدوء والسكينة وسط حفاوة الناس في حياة طبيعية دون حراسة، ولا خوف، ولا حذر.
يعيشون مشاعر حقيقية للحرية والطمأنينة الروحية، ثم يعودون إلى بلدانهم، يتحدثون لوسائل الإعلام عما عاشوا، ولمسوا، ورأوا رأي العين.

لكن الحدث الذي غدا حديث الساعة، وجعل اسم هذه البلاد على كل شفة ولسان في كل أرجاء العالم، كان حينما دخل أحد الملوك هذه البلاد

لزيارة استطلاعية وترفيهية، ولم يحضر إلّا برفقة عدد قليل من مرافقيه.
عندما حل في حدود البلاد، رأى ظلمة حالكة، فقدّم الناس له ولحاشيته الصغيرة وسائل الركوب للتجوال بها، وذلك على سبيل هدية عندما علموا أنهم ضيوف وفدوا من بلاد الغرب لقضاء عدة أيام في بلدهم، فعدوهم ضيوفاً شخصيين لهم، وقدموا كل ما ييسر لهم من وسائل الإقامة.
بعد مرور شيء من مدة الإجازة، فوجئ مرافقوه أن مليكهم قد اختفى عنهم، فبحثوا عنه طويلاً وسط الظلام، رفعوا أصواتهم في مكبرات الصوت دون أن يعثروا له على أثر.
عندها اضطر المرافقون للعودة إلى مملكتهم دون الملك، وأخبروا مسؤولي المملكة بحقيقة ما وقع.
كانت الأيام تمضي عليه دون أن يعلم بها حتى نشرت المملكة أنباء عن اختفاء ملكها في ظروف غامضة لدى قيامه بزيارة ترفيهية إلى هذه البلاد المظلمة.

الأمر الذي أشعل ثورة إعلامية هائلة في كل وسائل العالم، حيث كان على الملك أن يقضي ثلاثة أيام ويعود برفقة مرافقيه إلى بلاده، لكن الأيام الثلاثة مضت دون أن يعود وقد افتقده المرافقون بغتة، من جانبه كان الملك يتمتع بركوب الحمير والتجوال البطيء بين المدن في انقطاع تام عن أخبار العالم، وهو يستمتع بمشاعر أنه تقصد التخلي عنهم كي لا يذكّروه بشيء من وقائع حياته في بلاده، وحتى لا يرى غير الوجوه الجديدة، و يلبث في غياب تام عن عالم السياسة.

عند ذاك حضر رجال من طاقم قوات النخبة الملكية الشخصية، وباتوا يبحثون عنه في أرجاء البلاد دون أن يعثروا له على أثر حتى فقد بعضهم البعض، كما حدث بالنسبة لطاقم مرافقيه السابق بسبب الظلام الحالك، وعدم فاعلية الاتصالات، والانتقال البطيء بالحمير، الأمر الذي دفعهم إلى العودة كل بطريقته، ليلتقوا جميعاً في المملكة ويصرّحوا أنهم لم يعثروا على الملك المختفي.

عندما أحس الملك بأنه أخذ كفايته من الراحة والاستجمام والابتعاد عن الأنباء المثيرة، والأضواء العالية، والتنقلات، والاستقبالات، قرر العودة إلى بلاده، فتلقى إذ ذاك من الناس خدماتهم التي جعلته يخرج من البلاد ويجتاز حدودها، ليحل في دولة مجاورة، ويقوم بزيارة مفاجئة إلى سفارة بلاده هناك، ثم يعود إلى المملكة على متن طائرة خاصة يصطحبه السفير.
بعد نحو ساعة من وصوله، نشرت وسائل الإعلام المحلية نبأ عودة الملك بسلام إلى أرض المملكة، وهو يعتذر عن الإدلاء بأي أحاديث صحفية، بيد أنه يعد الناس جميعاً بأنه سوف يكتب مذكرات وقائع زيارته هذه في وقت قريب.

هذه المغامرات التي باتت تنتشر في وسائل الإعلام بدأت تغري كبار الأدباء والشعراء في العالم حيث غدوا يتدفقون إلى أرجاء هذه البلاد بحثاً عن الهدوء، وعن طقوس خاصة يستلهمون من خلالها أفق كتاباتهم الجديدة في بلاد غدت حديث الساعة بالنسبة للعالم، وكأن لا بلاد غيرها، فمن يدخلها ويخرج منها لا يلبث أن يصبح نجماً حينما تنهال عليه العروض الإعلامية ليتحدث عن مزايا بلاد لا تشرق فيها الشمس.

أمّا الأمر الآخر الذي زاد من التأجيج الإعلامي أن بعض وسائل الإعلام بدأت تتحدث عن خصائص هذه البلاد في العلاج النفسي، وقد حدث ذلك عندما أوصى طبيب نفسي شهير مريضه الذي هو أغنى رجل في العالم والذي بات يعاني اضطرابات نفسية، أن يمضي بعض الوقت في هذه البلاد الهادئة حيث سيحقق ذلك له الراحة من الاتصالات الهاتفية، والتلفاز، وصخب صعود الحافلات وأصواتها ودخانها، والأضواء المرتفعة.
تلك البلاد التي تمتاز بأنها اليوم أفضل مصح للإنسان في العالم حيث نقاء الهواء وهدوء الطقس، وشعور كامل بالأمن، وتحرر الإنسان بأنه مُحاصر بالوقت.
استجاب ذاك المريض لمقترح طبيبه، وحضر إلى البلاد، وبعد عودته أدلى بأحاديث لوسائل الإعلام قال فيها أنه بالفعل أمضى وقتاً مفتوحاً

في ربوع هذه البلاد حتى تماثل للشفاء وأقبل على الحياة بعد أن كان على وشك الانتحار بسبب يأسه من الحياة، ولم يكن يعلم بالوقت الذي أمضاه لو لم يخبره طبيبه بأنه أمضى شهرين في ربوع تلك البلاد.

عندها علق طبيبه النفسي على ذلك قائلاً: إن عوامل الحياة البدائية لمدة شهرين في ليل لا نهائي كانت كفيلة أن تضخ إليه طاقة جديدة من إشراقة الحياة.
من جهة أخرى بدأت أفواج العلماء تتسرب إلى البلاد بعدما علموا من خلال وسائل الإعلام عن بعض الظواهر الطبيعية التي من شأنها أن تقدّم مكتشفات جديدة هائلة بالنسبة لمفهوم الظلام، وخصائص خفية غير مكتشفة في طبيعة العين، وكان ذلك عندما نشر ذاك الملك وقائع الشهر الذي أمضاه في ربوع تلك البلاد.
في البداية، أعلنت دار النشر بأنها مقبلة على بيع نسخ الطبعة الأولى من منافذ الدار، وكذلك من منافذ المكتبات التي تتبعها في مدن المملكة.
عند ذاك تجمهرت طوابير الناس أمام المنافذ المخصصة لبيع النسخ، فاضطر العاملون إلى تسجيل الأسماء وفق الدور، وحددت أعداداً من الأسماء للحصول على النسخ كل يوم.
غدا الناس يترددون بشكل يومي ليعرفوا إن كان الدور قد بلغهم، وبدأت وسائل الإعلام تتحدث عن وقائع هذه المذكرات، الأمر الذي دفع أفواج الناس لابتياع نسخهم.

قال الملك بأن أول ما أثار دهشته، هو أن الخيول الملكية التي أحضرها معه من بلاده كي يستخدمها في تنقلاته، لبثت واقفة دون حراك فور دخول الحدود بسبب العتمة الحالكة التي ولجوها، وأنهم عند ذاك تركوا الخيول على الحدود، وباتوا يمسكون أيدي بعضهم البعض وهم يمشون سيراً على الأقدام حتى لا يتفرقوا.

بعد نحو ساعتين من المسير على الأقدام في اتجاهات غير محددة، تناهت إلى أسماعهم أصوات الناس، ثم رأوا أشخاصاً يجتمعون حولهم وكأنهم في وضح النهار، حتى إنهم لمسوا أن الأطفال كانوا يلعبون

على مقربة منهم بكرة القدم، فعلم الناس بأن سياحاً جاؤوا يزورون بلادهم، عندئذ قدموا لكل شخص منهم حماراً كهدية.
وما لفت انتباه الملك هو أن الحمار بدأ يمضي في قلب العتمة بسرعة كأنه يمضي في وضح النهار.
كان الحمار يرى ما لا يراه الملك، وعلى هذا النحو أخذ كل حمار يمضي في جهة دون أن يعلم الراكب أنه ابتعد عن الآخر.
عندها خطرت له فكرة ترك الحاشية كي يكون حراً في تجواله، فتنحى جانباً، وتعمّد الابتعاد عنهم، حينها علت وتداخلت أصوات تلاحق أسماعه، وهو يسرع بالحمار متجاهلاً تلك الأصوات التي علم بأنها كانت تنبهه إلى ابتعاده عن مرافقيه، أخذ يركل بقدميه من الأسفل على بطن الحمار كي يسارع في الجري دون أن يرى شيئاً.

قال الملك في مذكراته التي أسماها /وقائع أغرب شهر عشته في حياتي/ : علمتُ حينئذ بأنني أُرى ولا أَرى، وهذا ما بث الذعر في نفسي خاصة عندما فقدتُ عناصر حاشيتي وبتُّ وحيداً على حمار بدأ يتباطأ في مسيره وهو يلهث ويلتقط أنفاسه.

كان حالي كحال ملك سقطت به طائرته في عمق صحراء، وعندما استرد وعيه، اكتشف بأنه فقد بصره، وفقد جميع مرافقيه.
دهمني شعور مباغت بأنني ملكٌ أعمى، بَيدَ أن الناس غمروني بطيبهم دون أن يعلموا بأنني ملك.
أخبروني بأن عيونهم اعتادت الظلمة حتى غدوا يرون بها، وكأن الوقت هو ما قبل الغروب بنصف ساعة.

كانت ظلمة دامسة لم يسبق لي أن شاهدت مثيلاً لها إلى درجة أنني لم أكن قادراً على رؤية الحمار الذي أركبه، أو رؤية أصابع يدي.
عندما تأكد للناس بأنني غريب لا أجيد التحدث بلغتهم، زادوا من عنايتهم بي، واتجهوا بي إلى أحد البيوت.
كنتُ في تلك اللحظات أتضور جوعاً لأنني لا أعلم كم من الوقت مضى علي دون تناول أي شيء.

عندما قدّموا لي الطعام، علمتُ مقدار البذخ الذي يعيشون فيه رغم أنني دخلت بيتاً متواضعاً صاحبه أستاذ مدرسة يجيد الحديث بلغتي، شاهدتُ أصنافاً من الطعام لم أذق بلذتها في جميع أسفاري، وما هو أكثر أهمية أنني كنتُ أعيش مشاعر استثنائية لم يسبق لي أن عشتها طوال حياتي حتى وأنا في بيتي، ذلك عندما راودني إحساس بأنني في مكان آمن مفتوح لا حرّاس له، المهم هنا بالنسبة لي، مشاعر الأمن دون حراسة، هذا بذاته أتاح لي أن أكتشف أمراً بالغ الأهمية من ثنايا هذه الرحلة، وهو مدى توهمنا بأننا نعيش في أمن عندما نكون محفوفين بحراسة أمنية مشددة، وحقيقة الأمر: كلما كانت الحراسة متقدمة ومشددة، كان ذلك دليلاً قاطعاً على عدم إحساسنا العميق بالأمن، نكون حينها كمن يختفي خلف صخرة تحميه من وصول الرصاص.
لا شيء يجعلنا نعيش ذروة مفاصل الحرية قدر تجوالنا دون حماية حرّاس، وهذا ما لا يتاح لي في مملكتي، أو في أي مكان آخر أتردد إليه، باستثناء تلك البلاد التي أعتبرها ذهبية بامتياز أمنياً، وكذلك إنسانياً.
استطاع هؤلاء أن يكتسبوا من المحنة القاسية التي مرت بهم مشاعر التخلص من الرياء والنفاق والتملق.
أجل أيها السادة القرّاء الأعزاء، أصارحكم القول أنني أحسستُ بأنني عشتُ مع أناس طبيعيين، عفويين، تلقائيين، يتمتعون بنبل الفطرة الإنسانية، لقد استطاعوا أن يستفيدوا من كل يوم من أيام المحنة المريعة التي ألمت بهم.
هؤلاء بنظرتي هم أبطال علينا أن نتعلم منهم الكثير، لقد تحولوا إلى حكماء، وكم يشعر المرء بطمأنينة روحية عندما يكون في ظهرانيهم.

بعد أن قضيت نوماً هانئاً على فراش مريح، خرجتُ من حجرة النوم لأرى رجالاً ونساءً يستقبلونني بابتساماتهم المرحّبة، وبوجوههم البشوشة.
عندئذ قال لي أستاذ المدرسة الذي كان يتحدث بلغتي بشكل مقبول إنه مستعد لتقديم أية مساعدة لي.
قلت له وأنا أشد على كفه بأنني أشكره، وأريد الخروج في حال سبيلي حتى أرى شأني الذي حضرت من أجله.

عندها اصطحبني كل مَن في البيت إلى نهاية الشارع ولوحوا لي بأياديهم كي يتيحوا لي البقاء وحيداً لأنطلق على ظهر حماري إلى حيث أشاء.
كان حماري يرى بشكل جيد أفضل مني، دون أن أرى شيئاً وسط الظلام وهو يمضي، إلّا عندما كنا نمر بجانب أماكن بها بعض الأضواء، وعلى الأغلب كانت أماكن عامة يرتادها الناس لشراء حاجاتهم.
بالنسبة لي، اضطررتُ لبيع ما كان لدي من ذهب لاستخدامي الشخصي كي أستطيع أن أعيش بشكل جيد في ربوع هذه البلاد حيث كانت بعض السلع مرتفعة الثمن قياساً بما آل إليه وضع الناس الاقتصادي، حيث كانوا يدفعون دون تردد، يدفعون بثقة لأن الأسعار كانت ثابتة.
تبيّن لي ذلك عندما فاوضت على شراء بعض المستلزمات أول الأمر، واتضح لي أنهم يرفضون هذا الأسلوب لأن أسعارهم واحدة في جميع المحال، ولأنهم لا يخادعون الزبائن، ولا أحد يبتاع سلعة، ثم يبتاعها غيره بسعر أعلى، أو أدنى قليلاً.

استأنف الملك يقول في مذكراته: كانت أندر، وأغنى، وأجمل، وأنفس، وأطرف رحلة قمت بها في حياتي، لأنها قدمت لي على الصعيد الإنساني ما لم تقدمه لي جميع رحلاتي السابقة، علمتني دروساً غاية في الأهمية كنت بأمس الحاجة إليها، ولا أعتبر نفسي محظوظاً إلا بمقدار ما ظفرتُ من هذه الرحلة الاستثنائية المجيدة.

بدأت البلاد تتحوّل إلى أكثر بقاع العالم استقطاباً للسياح والزوار، وبات الناس من شتى أنحاء المعمورة يعبّرون عن رغباتهم الشديدة في خوض تجربة السفر إلى هذه البلاد والتعرف عن قرب إلى مزايا هؤلاء الناس الذين قال فيهم الملك في نهاية مذكراته: لو خُيّرتُ أن يكون شعبي مثل أي شعب في العالم، لقلت دون تردد: أريده أن يكون مثل هذا الشعب.

لم يكن يعلم الناس أن شوارعهم ذات يوم سوف تكتظ بكل هذه الأعداد الهائلة من الزوّار حتى بات واضحاً أن أعدادهم تجاوزت أعداد السكّان.

غدا ملوك الأرض، والرؤساء، والأباطرة، والأثرياء، وأهل الآداب، والعلوم، والفنون، والتربية ينهالون على أرجاء البلاد ليتعرفوا على خصائص هذا الشعب الذي يرفل في الأمن والنعمة ، فكان ذلك بمثابة فرصة جيدة أمام الناس كي يصنعوا تحفاً وهدايا ويبيعوها إلى الزوار الذين يقتنون الذكريات والهدايا والتحف والصناعات من هذه البلاد بإقبال شديد، الأمر الذي جعل ثراء الناس يتضاعف حتى شاع فيهم مَثَلُ: الطرقات غصّت بالأموال، لا تحتاج سوى إلى مَن يخرج ليلمّها.
عند ذاك أصبحوا يستعينون بالأيدي العاملة من خارج البلاد لأن متطلبات الآفاق الحياتية الجديدة، غدت تتجاوز طاقتهم وقدراتهم وأعدادهم، بعد أن نال منهم الإرهاق بسبب الجهد المتواصل والأعمال التي تتسع رقعتها.
الأمر الذي فتح مجالاً أمام عمّال من شتى أصقاع الأرض كي يأتوا ويعملوا في هذه البلاد، حتى إن البيوت غدت فيها خادمات قدمن من دول شتّى، وبات أغنياء العالم يستثمرون أموالهم الضخمة في إشادة مشاريع استثمارية كبرى زادت من ثراء الناس بشكل أكدّ للمراقبين أنهم فاقوا جميع سكان الأرض ثراءً وارتفاعاً في الدخل، إضافة إلى تحقيق أعلى درجات الأمن، والنزوع الإنساني.

* * *

تناهت نغمات الكمان عذبة شجية إلى مسمعه، أيقظتْ فيه مشاعر جمالية، وطاقة من نشوة غامرة وهو يجلس في محراب غرفته.

بدأت المعزوفات الموسيقية تتوالى على سمعه بعذوبة كأنها قادمة من دوحة ربيع، قفزت مناظر الورود المتنوعة بأشكالها وألوانها وأحجامها وروائحها إلى مخيلته، تلك الورود التي لم يعد يراها أحد، لم يعد يشم رائحتها أحد.
كانت تقى دوماً تحمل له وروداً من أشجار الروضة، وكانت سهدية تضع باقات الورود اليانعة على طاولته في الصباح.
كان يدخل مكتبه الذي يفوح برائحة ألوان الورود، تقدّم سهدية له فنجان القهوة، فيستمتع بدخول أجواء سحرية يشعر معها كم أن الحياة تحمل لحظات متعة حقيقية.

بدأ يصغي إلى عذوبة تلك الألحان التي تعزفها أنامل أكثر مخلوقات الأرض قرباً إلى قلبه.
كانت تعزف وهو يسمع كأنها لا تعزف على أوتار الكمان، بل تعزف على أوتار قلبه.
هكذا يتزيّن الإيقاع الموسيقي ببعد جمالي أكثر رقة وعذوبة، وهو يتناغم بلمسات أنامل أقرب وأعذب وأحب وأغلى الناس وأكثرهم قيمة لديه.
كل إنسان لديه ما يقدمه للآخر، ها هي ابنته تقدم إليه شيئاً مجدياً من مزايا طفولتها، أخذ يُدرك مع الإصغاء أن كل إنسان يملك كنوزاً ثمينة يمكن أن يقدمها للآخر حتى لو كان في عمق صحراء قاحلة، وكل إنسان يملك أسلحة دمار فتاكة يمكن أن يصوّبها إلى الآخر حتى لو كان في عمق تلك الصحراء.

لا أحد لا يملك كنوزاً ثمينة يا ألماظ، ولا أحد لا يملك أسلحة فتاكة، لكن عليك أن تكتشف كنوزك الثمينة، ثم تكتشف الآخر الذي ستمنحه شذاها، ثم تروّض نفسك على تذوق متعة العطاء وتروضها على تذوق متعة التلقي، فيروض نفسه على متعة العطاء ويروضك على متعة التلقي، فيمسي العطاء تَلَقِياً، ويمسي التلقي عطاءً بالنسبة لكليكما في خط متواز حتى إذا أحس أحدكما بنقص في إحدى الخصلتين، أحس بأنه أعرج يمشي على قدم واحدة تلقاء عزيزه.

في ذروة هذا التناغم كأنك داعبت محيا الكنز الثمين حتى أيقظته من عمق نومه فغسلت وجهه برحيق وردك، عليك أن تكون على جناح يقظة ولا تغفل طرفة رمش حتى لا تلمس خصلات شعر الغول النائم بجوار أخيه الكنز على ذات الفراش يتغطيان بذات الغطاء ويتوسدان ذات الوسادة.
عليك أن تكون على أهبة التوقع بيقظته بغتة سواء أَتحسس بدنه منك بلمس، أو تشممتْ خياشيمه منك رائحة، عندئذ تمسي أعلى درجات المحبة، أعلاها بغضاء، أعلى درجات الإنسانية، أعلاها توحشاً يتحد التوحش بالبغضاء، لتنبثق عنهما نزعة القتل.

صديق، يقدم على قتل صديقه بعد عمر من محبة وتآلف.
زوجة، تقدم على قتل زوجها بعد عمر من محبة وتآلف.
زوج، يقدم على قتل زوجته بعد عمر من محبة وتآلف.
جار، يقدم على قتل جار بعد عمر من محبة وتآلف.
بلاد تشن حرباً على بلاد بعد عمر من محبة وتآلف.
عشيرة تقدم على قتل عشيرة بعد عمر من محبة وتآلف.
لقد انتفض الغول من سباته هائجاً دون أن يرى ما حوله.

تتواصل المقطوعات الموسيقية الأكثر ألقاً على مسمعه، ويتواصل في التأمل في أفق رحب.
هكذا سعى الإنسان ما بوسعه كي يروّض هذا الغول الهائج ويجعله أقل عنفاً، فكانت فكرة الآداب والفنون لتهذيب الغول لحظة استيقاظه، وفي مراحل متقدمة من التذوّق الأدبي والفني إلى أنسنته.
تذكر الاختبار الذي يقوم به صديقه الطبيب /ريزدار/ منذ عشر سنوات مع مرضاه، ويتوصل من خلاله إلى تحليلات اجتماعية هائلة، وهو يغور في أعماق المجتمع من خلال مرضاه.

ذات مساء بينما كان قد فرغ من عمله، وراح يتجول بسيارته في شوارع المدينة، بغتة رأى نفسه قريباً من عيادة صديقه ريزدار، عندئذ خطر له أن يلقي عليه السلام ويجلس بعض الوقت معه، لأن ريزدار لا يصبح على مقربة من مشغله إلا ويتوقف ليلقي عليه السلام ويتناول

شاياً أو قهوة لديه، وعندها يعيد تذكيره: لا أقول لك قم بزيارة خاصة لي، لكن إذا صادف وكنت قريبا من عيادتي، مرّ ولو لبضعة دقائق.

إنه من الأصدقاء النادرين الذين اختارهم ألماظ، ومع الوقت استطاع ريزدار أن يتبوأ لديه منزلةَ الأصدقاء النخبة الشديدي القرب إليه وهم يُعدون على الأصابع.
شخص نهم القراءة، حصل على إجازته من الغرب حيث أمضى سنوات شاهد خلالها إيقاع الحياة الاجتماعية، ومرّ بتجارب إنسانية أغنت من مخزونه المعرفي
والإنساني.
ذات مرة قال لألماظ: يمكن للأفراد أن يقوموا بأدوار تنويرية في حياة المجتمعات، فرد واحد يمكن له أن يسهم في تنوير سكان قرية، خمسة أشخاص يمكن لهم أن يتركوا أثرهم على سكان مدينة، عشرة أشخاص يمكن لهم أن يسهموا في تغيير سكان دولة بأكملها.
المجتمعات المتقدمة تقف على جهود أفراد تحولوا في عرفها إلى قديسين ومحجات إنارة، يمكن لفرد واحد أن يحدث نقلة نوعية في بنية المجتمع الذي يعيش فيه.
علينا أن نكون حذرين في نظراتنا إلى أهمية دور الأفراد، الأفراد في المنزل، الأفراد في الشارع، الأفراد في الحي، الأفراد في العائلة.
نقول هذا البيت فيه فرد فاشل، وهذا البيت فيه فرد متفوّق.
هذا الشارع فيه فرد منحرف، هذا الشارع فيه فرد عبقري.
هذه الدولة فيها آلاف المشعوذين، واللصوص، والشوّاذ، والمنافقين، والمحتالين، والمجرمين، والمدمنين.
هذه الدولة فيها آلاف الفنانين، والأدباء، والعلماء، والوجهاء، والأفاضل، والكرماء، والطيبين.
هؤلاء الأفراد يصنعون مجتمعاتهم، ويسهمون في تقديمها إلى الآخرين.

عندما دلف باب العيادة، وقعتْ أنظاره على أربعة أشخاص ينتظرون في غرفة الاستقبال، عندئذ نهضت الممرضة مرحِّبة به ببسمة سرعان ما قفزت إلى ثغرها: أهلاً أستاذ ألماظ، تفضل، تفضل، كيف حالك أستاذ؟ اشتقنا لك.

بادلها البسمة قائلاً: اشتاقت لك العافية يا حلوة.

خطت الممرضة على إثر ذلك إلى باب غرفة الطبيب، أدارت المفتاح، ودعته إلى الدخول على الفور.
تلكأ في الدخول عل الطبيب الذي خمّن أنه قد يكون في وضع حرج مع أحد المرضى، بيد أن الممرضة كررت قولها: تفضل، تفضل، لتكن مفاجأة سارة مني له حتى يعرف قيمتي.

عندما رآه ريزدار استقبله بترحاب وراح يتبادل معه القبلات قائلاً: يا لها من مفاجأة سارة.
كان ثمة رجل يقف بجانبه يحمل أدوية بيده.
قال له ريزدار وبدا أنه يستأنف حديثاً كان قد قطعه إثر دخول صديقه: عليك ألّا تهمل مواقيت الأدوية، لأن ساعة تأخير أو تقديم يمكن لها أن تترك أثراً على سوية العلاج، هذه المواقيت حدّدها مختصون بعد تجارب، واختبارات.

شكره الرجل وهو يخرج، عندئذ دخلت الممرضة على الفور، وهي تنظر إلى الطبيب الذي هزّ رأسه بالإيجاب، فعادتْ إثر ذلك، وأدخلتْ مريضاً.
قال ريزدار: عن إذنك يا صديقي يمكنك أن تتصفح حسابي على تويتر، ثم دخل مع المريض إلى حجرة المعاينة.
انتقل ألماظ إلى كرسي صديقه ويجلس خلف طاولته، قرأ تغريدة كتبها، ثم قرأ ما كتبه الأصدقاء.
بعد نحو عشر دقائق، خرج الطبيب برفقة مريضه، فنهض ألماظ من خلف الطاولة، لكنه مدّ يده إلى كتفه حتى يبقى في مكانه، وراح يكتب وصفة للمريض وهو واقف.
تناول المريض الوصفة وخرج، لتدخل الممرضة، وهي تنظر إليه، إلا أنه لم يهز رأسه، واكتفى بالقول: كأس شاي طيب للأستاذ ألماظ.

قال ألماظ بعد أن جلس صديقه على كرسي: باتت مواقع التواصل الاجتماعي ضرورة ليس للأفراد فقط، بل للمجتمعات الإنسانية أيضاً،

كنا في الماضي نقول: تنقلب حافلة، فيموت فيها عشرون إنساناً في بلادنا دون أن تسمع المدينة المجاورة عما حدث، ويصاب كلب بمرض في بلاد الغرب، يسمع العالم كله.
الآن عندما يقع حادث في بلادنا، يمكن أن يسمع به العالم كله، هذه قوة للمجتمعات، وضعف لسلطات الجور.
قال ريزدار: الإعلام أشد قوةً ونفوذاً من القوانين، لن يكون بوسعنا أن نكون أقوياء إلا عن طريق التواصل الإعلامي مع الآخرين.
كثير من أصحاب النفوذ في العالم يمنعهم خوفهم من الإعلام كي أن يجنحوا، لأن الإعلام يقف للناس جميعاً بالمرصاد، ولا خوف على شعب يسانده إعلام بلاده.

الخوف، كل الخوف يا صديقي على شعوب إعلام بلادها مفكفك المفاصل، يكون عليها، أكثر مما يكون معها.
ما حققته مجتمعاتنا من انتصارات يمكن الإشادة بها، كان بمعونة انفتاح الإعلام، وما كانت تعانيه، كان بسبب انغلاق الإعلام.

في تلك اللحظات، أدخلت الممرضة كأسين من الشاي إليهما، وصوّبت نظرها إلى طبيبها الذي هز رأسه، فخرجت وأدخلت مريضة على الفور.
دخلت الممرضة برفقتها إلى غرفة المعاينة، ثم ما لبث أن دخل الطبيب بعد أن تناول رشفة من الشاي الساخن.

عندئذ بدأ ألماظ يحتسي الشاي، واستأنف قراءته في حساب صديقه حتى انتبه إليه خارجاً من حجرة الكشف وهو يقول: المعذرة يا صديقي.
قال: إنك تحرجني يا ريزدار، بل أنا أعتذر منك لأنني اقتحمت عليك عيادتك في وقت العمل.
قال: أأنت تسمّي هذه الزيارة اقتحاماً؟ تدرك جيداً بأنها تلبية دعوات مُلحّة مني، لقد تفضلتَ واستجبتَ لدعواتي المتكررة، وكان عليّ أن أتفّرغ للحديث معك، لكن تشير لي الممرضة أن بعض الحالات طارئة، لذلك أقدم اعتذاري الشديد منك.
ثم راح يكتب وصفة وهو واقف ويمدها إلى المريضة.

جلس يكمل احتساء شايه وهو يقول: أدخل دائما إلى صفحتك في الفيسبوك، لديك علاقات واسعة في مختلف العالم مع شخصيات بارزة وذات قيمة حقيقية.
قال وقد نهض محتسياً آخر ما تبقى في الكأس: شفتك بخير يا عزيزي.
قال ريزدار: بقي ما هو أهم، ولم أقله لك
قال ألماظ: مستعد لسماعك
قال: الأمر يحتاج إلى جلسة خاصة.
قال: إذن، نتعشى في النادي، وهذه عزيمة مني، إن أردتها عائلية، أو أردتها فردية.
قال: مادام الأمر هكذا، لتكن عائلية، أم آرين ستكون اشتاقت لأم ميرهان، والأولاد أيضاً يكونون اشتاقوا لبعضهم.

ها هي ابنته تقدم إليه ما ليس بوسع أحد أن يقدمه، كما أنه يقدم لابنته ما ليس بوسع أحد أن يقدمه إليها.
بعد أن خيّم الليل بحين، خطرت له فكرة بيع آلات موسيقية في جزء من مشغله، كان ذلك عندما دخل إليه شخص وقال بأن اسمه طوني وهو مدرّس موسيقى، واقترح عليه أن يقيم دورات موسيقية في غرفة من المشغل، وهو لا يحتاج سوى إلى غرفة واحدة، يأتي إليها الطلاب لتلقي الدروس الموسيقية.

عندما أخبر تُقى بذلك، قالت: معقول يا عزيزي.. خدمة جيدة نقدمها للأطفال، بعد أن تعلمت /ميرهان/ العزف على الكمان أشعر بأن ذوقها تجاه أمور كثيرة صار أفضل، وتقييمها لمفاهيم عديدة في تحسّن، أراها وهي تشعر بمسؤولية أنها تملك أن تفعل شيئاً مجدياً.
قال: الموسيقى من الوسائل التربوية التي تسهم في تلطيف وتهذيب النفس، الفن لا يقل قيمة وأهمية عن الأدب.
قالت: أمّا من الجهة الثانية، فهذا سيفتح لنا باب رزق إضافي، خاصة إذا خصصت ركناً لبيع الآلات الموسيقية في المشغل، سوف يزداد بيع الآلات الموسيقية بوجود الدورات، وسيصيبنا جزء من الاشتراكات الشهرية للطلاب.

قال: وهذا سيتيح لي أن أرتاح من أخذ ميرهان ونجد إلى الدورات، سيأتيان ويعودان معي، نجد يميل إلى الجيتار.

عندما توقفت ابنته عن العزف،.نهض فاتحاً الباب واتجه إليها، قبّل أناملها، ثم أخذها في حضنه تاركاً الدموع تنهمر من عينيه، للتو أدرك بأنه يرى فيها أجزاء من كل امرأة عرفها، يرى فيها حنان الأم، لمسات الأخت, جزءاً من الخالة، من العمة، من الجدة, هكذا تأتي الابنة كتعويض عن كل امرأة عرفها، تأتي مختزلة وحاملة مزايا كل امرأة تخصه عن قرب أم عن بعد.

إنها إشراقة الطفولة، الشمس التي تسطع على ليله كلما فتح عينيه، هكذا يكتشف أن لكل واحد من أبنائه لونه، ورائحته، وجماليته، كما أن لكل صنف من الورد لونه، وجماليته، ورائحته.
لا وردة يمكن لها أن تنوب عن أختها أو أخيها، كذلك لا ابن يمكن له أن ينوب عن الآخر، لذلك يبذل قصارى جهده ليرسّخ فيهم قيماً، يعزز مبادئ إنسانية في نفوسهم.

يزداد شعوراً بأنه إزاء عبء مسؤولية عظمى تجاه تشكيل ملامح جيل بشري بأكمله، هذا العبء الذي يضفي على الحياة برمتها طابع الجدّية: لأن الطفل الذي تتهرب وتتخلى عن مسؤوليتك تجاهه يا ألماظ سوف يعاقبك عندما يكبر وإن لم يعاقبك، فإن أفعاله وصنائعه ستكون عقوبة لك، كما أن الأول لا يتوانى عن مكافأتك وحتى لو لم يكافئك، فإن أفعاله وصنائعه ستكون مكافأة لك.

عندما استيقظ ألماظ من النوم، رأى عائلته في نومٍ عميقٍ في الغرفة المحكمة، حيث برودة الطقس، وصوت انهمار المطر.
ترك الفراش وراح يُمارس حركات رياضية في الصالون، ثم ما لبث أن فتح الباب وأطل على الشارع حيث الحركة دؤوبة في الناس، راوده إحساس بجمالية ونكهة الحياة وهو ينظر إلى زحام الناس، عندئذ نهضت زوجته وشرعت في إحضار طعام الإفطار، ثم راحت تيقظ الأولاد.

مع جلوسه برفقة عائلته في تناول الطعام، خطر له أن الجلوس إلى مائدة الطعام دون شقاوة الأطفال يفقد نكهة أساسية منه، كل طفل يقشر بيضته، يغمس كسرة خبز في العسل، ثم يتناول رشفة حليب، وهو يتأمل جمالية العائلة وجمالية تماسكها، حيث يفقد الإنسان دون عائلة جوانب مثيرة غاية في الأهمية من المزايا الإنسانية التي تجعله أكثر توازناً وخبرة واتساعاً في أفقه، وبُعداً للنظر في خِضَم حياةٍ بالغة الجدية والألق.
إنها روح المسؤولية التي تُجنّب الإنسان مشاعر العدمية واللا انتماء والفوضى الروحية العارمة.
عندما يرى صبية، يتذكر ابنته الصبية.
عندما يرى صبياً، يتذكر ابنه الصبي.
عندما يرى زوجة، يتذكر زوجته.
عندما يرى أباً، يتذكر أبوته.
عندما يرى محفظة مرمية على الأرض، يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.
مع هذا التحوّل الذي أحدثه الزواج، يختلف هذا الشخص عن شخص آخر دون عائلة وهو يرى صبية، ولا تكون لديه صبية.
يرى صبياً، ولا يكون لديه صبي.
يرى زوجة، ولا تكون لديه زوجة.
يرى أباً، ولا ينتعش بمشاعر أبوية.
يرى محفظة مرمية على الأرض، ولا يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.
عندئذ يداهمه إحساس بأن حاله دون عائلة، كحال نهر ساكن دون جداول تتفرع عنه.

بعد تناول الطعام، استأذنه نجد كي يُخرج دراجته الهوائية الصغيرة إلى الشارع، فهز رأسه بالموافقة.
إنها ساعة من اللهو في الشارع، حيث يقود نجد دراجته وتجري ميرهان خلفه.

أحياناً يُخرج كرسياً ويجلس يستمتع بجمالية لمسات الطفولة عندما يجتمع أطفال الحي يمارسون طفولتهم وشقاوتهم وهو جالس يتناول فنجان قهوة، أو كأساً من الشاي، وبعد قليل تقف زوجته إلى جواره حاملة إنشاز وهما يتبادلان أطراف حديث عن شقاوة عالم الأطفال، فتعود وتكرر ذات الجملة التي تكررها على مسمعه: لو لم يتعلم الكبار من الأطفال سوى سرعة التسامح لكفاهم ذلك.
ثم تستأنف: في اعتقادي يا ألماظ أن أسوأ ما يصيب المرء في مراحل حياته، هو عندما يموت الطفل في أعماقه.
يقول: أحسنتِ يا عزيزتي.
تقول: أحياناً أشعر أن حاجة الكبير إلى الصغير، تفوق حاجة الصغير إلى الكبير، إنهم يحققون لنا التوازن، يذكروننا بمساحة الطفولة، ليس هناك ما يفوق بسمة الطفل بالنسبة للكبير.
يهز رأسه وهو يتأمل الأطفال وكأنهم في عرس ويشرد: الطفولة هي الفطيرة التي صنعت رغيف الإنسان في مخبز الحياة يا ألماظ، تنتمي الفطيرة إلى شجرة الفطرة التي تتبرعم بذرة الإنسان في دوحة زهرتها، وتتفتح على شرفاتها لتطل على إشراقة وظلمة الحياة بحلة إنسان جديد يسعى إلى الزحف رويداً رويداً شطر رحابة زخم إيقاع الحياة.
كل بذرة إنسان تتلقح وتتبرعم في دوحة زهرة شجرة الفطرة، لا يوجد إنسان لم يتلق التلقيح في عتمة أريج تلك الزهرة.

تنتصب الشجرة شامخة على غِنى جذورها، وينتصب الإنسان شامخاً على غِنى فطرته.

كما أن الجذور تمسك شجرتها كي لا تقتلعها الرياح، وكي لا تمضي وفق هواها، تمسك الفطرة بإنسانها كي لا تقتلعه الرياح، وكي لا يتيه في منعرجات هوى النفس.

كما أن الشجرة تستمد عافيتها من عافية جذورها، يستمد الإنسان عافيته من عافية فطرته.

كما أن الشجرة تكون قوية قويمة على قوة ثبات جذورها، يكون الإنسان قوياً قويماً على قوة ثبات فُطيرة الطفولة.

كما أن الشجرة تموت إذا اجتُثت من جذورها، تنطفئ في روح الإنسان نفحات الإنسانية إذا اجتُث من فطيرته.

تلبث أنوار مشكاة الفطرة ساطعة في روح الإنسان حتى اليوم الأخير من عمره، هذه الأنوار التي تجعله يمتلئ بهالة إشراقة الحيوية كلما ألقى نظرة إلى بهاء الطبيعة، كلما وقع منه بصر على جميل، كلما قرأ كتاباً نفيساً ، كلما مضى في شارع جديد.

هذه الأنوار التي تبثه بنضارة التجدد، وتشحن حواسه بطاقة الاندفاع شطر رحابة زهو الحياة والإبداع والاستمتاع بمباهج قيم الأخلاق والعفاف والنقاء.

هنا حدث تغير في الخط ولم أعلم هل أغيره أم لا، قررت عدم تغييره والإشارة إلى تغيره لتتخذ القرار.

لولا سطوع نور الطفولة في فطيرته لأخفق الإنسان كثيراً في مسعاه كي يستمتع بضحك عميق، لأخفق في مسعاه كي يقدم عملاً جاداً، لأخفق كثيراً كي ينعم بسكينة الليل وهو يستلقي في دفء الفراش.
يلتفت إلى تقى ويقول لها:
عندما يهب الإنسان بسخاء، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من مساحة مبدأ الطفولة.
عندما يعفو الإنسان عن كثير، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من معالم قيم الطفولة.
عندما يحب الإنسان بوفاء، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من رحابة صفاء الطفولة.
هناك أناس يا حبيبتي استطاعوا أن يجرّدوا أنفسهم من غرسة الطفولة المباركة، استطاعوا أن يقلعوا هذه الغرسة من فطرتهم، فغدوا يعيشون دون مرجع الطفولة، يعيشون دون أن تسطع وجوههم بنورانية الطفولة.
وجوههم قاتمة مطفأة الأنوار، قاماتهم تتحرك كأنما هي أشباح.
هؤلاء يمكنهم ببساطة شديدة ارتكاب قول الزور، ومواراة الحقيقة، يمكنهم أن يكونوا قساة، وطغاة، وقطّاع طُرق، لأبعد حد.

قست قلوبهم فمارسوا الطغيان، دون أن يهتزوا خفقة قلب، وما ضمير الإنسان سوى قبس من قبسات أنوار الطفولة. الذي لا ينعم بطفولة حية، يصعب عليه أن ينعم بضمير حي.

الضميرهو مرآة فطرة الإنسان، لأن الإنسان بحكم فطرته يجنح شطر مَواطِنِ التسامح، أكثر مما يجنح شطر مواطن العقاب، يجنح شطر المحبة، أكثر مما يجنح شطر البغضاء، ولا يستوطن الغل إلا في قلوب خلت بطانتها من بركات الطفولة.

على منحنيات هذه الدروب الوعرة التي اتخذوها تتعزز في نفوسهم ردّات فعل غير طبيعية تدفع بهم إلى شذوذ السلوك كشيء مما يمكن تسميته بسعي للنيل من صفحة طفولة الإنسان الناصعة، كونهم سقطوا فعلياً في خشونة اللا طفولة التي تساوي خشونة اللا براءة، خشونة اللا صفح، خشونة اللا توادّ.

إنهم في هذه المرحلة المتدنية من منارات السلوك الإنساني يسعون للاعتداء على الأطفال كحالة من الطفولة العامة، يعتدون بكل ما يملكون من أشكال مخزية تثبت مجدداً انحدار نفوسهم إلى الدرك الأسفل من التلوث الروحي.

إنهم يسعون إلى اغتصاب غصن الطفولة، إلى انتهاك حرمة الطفولة، إلى الإساءة إلى فطيرة الإنسان.

لذلك ينطفئ نور الإنسان من وجوههم، تنطفئ لمسة نضارة الكائن البشري من سحناتهم.

من الضفة الأخرى نرى عقاب الطفولة لهؤلاء، عقاب الطفولة البريء الذي يكمن في هجرانها لهم، وتركهم يتخبطون كالعمي في ظلمة الروح.

لا يضحكون ضحكاً طبيعياً،

لا ينامون نوماً طبيعياً،
لا يجلسون جلوساً طبيعياً،
لا ينظرون نظراً طبيعياً،
لا يسمعون سمعاً طبيعياً،
لا يتحدثون حديثاً طبيعياً،
لا يصادقون صداقة طبيعية،
لا يحبون حباً طبيعياً،
ذلك أنهم يعيشون على هامش من فطيرة الطفولة.
تقول تقى: تعلمتُ من علاقتي بالأطفال من خلال عملي ومن خلال تربية أولادي أن الإنسان ليس بوسعه أن يعتدي على أخيه الإنسان، قبل أن يعتدي على الطفل الكامن في داخله أولاً.
يقول: لأن الطفولة لسوف تنهاه عن ذلك ولو عند حافة اللحظة الأخيرة، ذلك أن علامة عافية الطفل لدى الكبير، عطفه على الصغير.
يحتاج الإنسان إلى سماع صوت الطفل الذي كانه، يحتاج إلى العودة إليه، التحاور معه.
كلّما كان الكبير قريباً من عالم طفولته يا عزيزتي، أحسن تربية أطفاله، وكان لهم خير رفيق، لذلك نحن نحتاج إلى هذه اللحظات الذهبية ننظر فيها إلى هؤلاء الأطفال يمارسون ألعابهم أمامنا، ورغم كل هذا الليل، نرى في حركاتهم أضواء الإنسان التي بوسعها أن تُضيء عالماً من الظلمات.
في الماضي كان يلتقط صوراً ومقاطع فيديو ظريفة من خلال كاميرا هاتفه الخلوي ذات الدقة العالية، وبين فترة وأخرى يفرغها في جهاز الحاسوب، ثم يحتفظ بنسخة على الفلاش، وأحياناً يحمّل بعض المقاطع واللقطات المميزة على صفحته في الفيسبوك.

كأن ذلك كله كان يقظة وقد انتقل منها إلى حلم طويل لا يمت إلى ذاك العالم الذي خلّفه وراءه بصلةٍ، كأن الحياة آبت إلى بدائيتها.

كان في الماضي عندما ينفصل الهاتف الأرضي، أو الخلوي يوماً واحداً، يشعر باضطرابٍ وكأنه يعيش خارجاً عن الحياة، لم يكن يمر

يوم دون أن يتواصل مع مجريات العالم من خلال القنوات الفضائية، أومواقع الإنترنت، أو بريده الإلكتروني.
كل شيء لبث في موضعه دون حياة، الهاتف، التلفاز، الحاسوب، البراد، الغسالة، المكواة.
كل أداة من الأدوات الكهربائية تذكّره بتألق حياة مضت وبدت بعيدة عن تناول اليد، حتى اضطرت تقى أن تلبس كل أداة قطعة قماش، وكذلك السيارة الواقفة أمام الباب التي فرغت إطاراتها من الهواء، مغطاة كما الحال بالنسبة لبقية السيارات، حتى جرس الباب لم يعد له لزوم، حيث استُبدِل به جرس آلي مثبت في أعلى الباب، يدق به الطارق.

نهض ألماظ من كرسيه تاركاً زوجته تراقب الأطفال، عاد إلى الداخل، ارتدى ثيابه، وخرج مع دراجته الآلية، لوّح له الأطفال بأياديهم وهو يدفع الدراجة بيديه حتى وصل مفرق الطريق العام، هناك نط بحركة سريعة ليستوي عليها ويقودها متجهاً إلى مشغله.
كانت سهدة تغسل الرصيف المحاذي للمشغل وتتبادل حديثاً مع شاب يعمل أجيراً في دكان جاره /فوزي/ الذي كان سابقاً يبيع فيه مشروبات روحية، وبعد حلول الظلام، حوّله إلى دكان للسمانة.
ـ أهلاً وسهلاً أستاذ ألماظ.
هذه العبارة التي أطلقها الشاب، جعلت سهدة تلتفت لترى معلمها يقف بالقرب من باب المشغل.
قال ألماظ: كيفك يا بطل؟ كيف حال معلمك؟
ابتسم الشاب مجيباً: معلمي مثل الفلة يا أستاذ.

عندما اشترى ألماظ هذا المشغل منذ نحو عشرين سنة، تعرّف على / فوزي/ الذي كان يبيع المشروبات الكحولية إلى جانب الدخان، كان إذ ذاك في الخامسة والأربعين من عمره يعيش عازباً، ويقول بأنه مرتاح في عزوبته.
كان ألماظ أحياناً يجلس عنده في الدكان ساعتين يتبادل معه الأحاديث، وأحياناً يتناول كأساً من الكحول، فيرى مظاهر مريبة على جاره، حيث يتردد إليه صبية ومراهقون، يجرعون الكحول وقوفاً أمام باب المحل

مع بعض الموالح أو البطاطا المجففة، ومنهم مَن يدخل ليجرع زجاجة في الداخل.

تعتريه الدهشة لمنظر شبان يجرعون زجاجات الكحول جرعة واحدة، وعندما يعبّر لجاره فوزي عن استغرابه، يجيبه مقهقهاً: شباب يا أستاذ ألماظ، شباب بكامل لياقته.
كان كلما دخل عليه وجد كأساً من العرق بجانبه، وكلما فرغت الكأس، ملأها، ثم مدّ إليه كأساً وهو يقول: إنه لذيذ ومنعش.

لم يكن يعلم أن شبان المدينة أصبحوا ضحية للكحول والحقن والأقراص المخدرة، لولا هذا المحل الملاصق لمشغله، كان يتألم وهو ينظر إلى الصبية وأحياناً يذرف الدموع رثاء لِما آلت إليه حالهم.
كانوا شباناً يقبلون على الحياة للتو، يريدون فقدان الوعي بأي طريقة سريعة المفعول.
آنذاك لفت نظره شاب وسيم في السادسة عشرة من عمره يدخل المحل ويجلس بالقرب من/فوزي/ الذي يوليه عناية خاصة، يقول له فوزي عندما يدخل المحل فجأة: تعال يا هوزان، اقعد بجنبي.
يسحب كرسياً ويجلس بجانبه، ثم يراه ألماظ يتصرف في المحل كما لو أنه صاحبه، كان يشرب بكثرة، وأحياناً يراه يتناول الأقراص المخدّرة، يحقن يده، يدخن أصناف المخدرات، ومما لفت نظر ألماظ أنهما يتبادلان الغمز واللمز.
مرات عديدة عندما كان يتأخر في تثبيت بعض اللوحات على واجهات بعض المحال، ويضطر للعودة إلى مشغله، كان يلمح هوزان داخلاً المحل خلسة كما لو أنه لص، فيصرف /فوزي/ أجيره من المحل، ويغلق الباب، وفي بعض الأحيان يراهما معاً في سوق المدينة.

بعد عدة أشهر، لاحظ ألماظ غياب هوزان، وأنه لم يعد يراه يدخل الدكان، وذات مرة بينما كان ألماظ يجلس على كرسي بجانب باب المحل، تقدم إليه فوزي وألقى عليه السلام، فأجلسه ألماظ على كرسي بجانبه، وطلب من سهدة أن تأتي له بكأس من الشاي، عندها سأله عن هوزان الذي لم يعد يراه منذ مدة.

توقف فوزي قليلاً، ثم رأى دموعاً تنهمر من عينيه وهو يقول: لا أعرف كيف حدث ذلك يا جاري.
لقد وجدوه ميتاً في أحد أقبية بناء جديد غير مسكون بعد، وقال الأطباء بعد الكشف عليه أنه مات بسبب تناول كمية كبيرة من الكحول والأقراص المخدرة .
كان هوزان في ذاك القبو المهجور لوحده دون غطاء في ليل قارس من شهر كانون الثاني، وكان قد أشعل ناراً يتدفأ عليها، لكن الحقيقة يا جاري أصارحك بأنني تسببت في موته.
قال ألماظ : كيف يا جاري؟
قال وهو يمسح دموعه: قبل يومين من ذلك حدث بيننا خلاف، كنتُ ثملاً وطلبتُ إليه أن يخرج لبعض الوقت من المحل كي أبقى وحدي، كنتُ بحاجة إلى ذلك، لكنه أساء فهمي وقال: تطردني من دكانك يا معلم فوزي، إي على رأسي، بس ما راح تشوف وجهي مرة ثانية.

قالها وخرج منفعلاً، لم أكن أعلم أنها بالفعل ستكون المرة الأخيرة التي أراه فيها، اعتدتُ عليه، ظننتُ بأنه سيأخذ الأمر بمزاح ويعود بعد ساعتين، لكنه اختفى عني شهراً كاملاً دون أن أعلم شيئاً عن غيابه حتى أخبرني صديق له بذلك بعد الحادث بعشرين يوماً.

بعد نحو خمس سنوات من ذلك، وبينما كان ألماظ يهم بالدخول إلى مشغله في فترة ما بعد الظهيرة، لوّح بيده مسلّماً على جاره فوزي الذي كان بجانب باب دكانه، ومع الإجابة على السلام طلب إليه فوزي أن يتفضل إلى الدكان.
شكره على دعوته، مادّاً خطواته شطر الدكان، لدى دخوله، رأى صبياً يجلس على حزمة عبوات بيض فارغة، يرتشف كأساً من البراندي ويدخن سيجارة.
لا يدري لماذا قفزت صورة هوزان إلى مخيلته في تلك اللحظات، تأمل وجه الصبي قليلاً ثم جلس على كرسي قدّمه إليه جاره الذي جلس هو الآخر إلى جانب الصبي الذي يرتشف من كأس قائلا لأجيره: يا ميثاق افتح بيراية لجارنا العزيز.

لم يكن فوزي قد تغير كثيراً، إنهم ذات الصبية الذين يتجددون ويتهافتون عليه، وها هي أقراص الفلافل، وصحن الشاورما، وكأس العرق، وعلبة الدخان، كأن شيئا لم يتغير، كأن خمس سنوات لم تمض على تلك الطقوس التي كان هوزان يحرّكها، لكن ألماظ أدرك أن فوزي لبث مخلصاً لهوزان عندما وقعت عيناه على صورة له بروزها بشكل جيد وعلّقها في صدر الدكان.

جلس ألماظ الذي استطاع أن يقتحم عالم هؤلاء ويتعرّف على عشرات الشبان الذين كانت تجمعهم ميزة الطيب والتلقائية، وميزة أنهم ضحايا لآباء لم يكونوا آباء، ولأمهات لم يكنّ أمهات.
بدأ يشاركهما الشراب وبعض الطعام، ويقبل سيجارة من يد جاره الذي ألح بها عليه قائلاً: دخنها يا رجل.
ثم بعد قليل بدأ يبكي بحرقة وهو يقول: من أجل أي شيء سأعيش يا أستاذ؟ لا أمل لي، لا هدف لي، لا ماضٍ لي، لا حاضر لي، لا مستقبل لي.
عشتُ عازباً، وسأموت عازباً، لن تكون لي زوجة، لن يكون لي أبناء، لن يقول لي أحد: يا أبي.. يا جدي.
أعيش ولكن خارج الحياة، لا أقرب من الحياة، ولا تقرب مني.
اليوم كالبارحة، والبارحة كاليوم، وغداً كالبارحة.
كان يتحدث بألم، وكان ألماظ يصغي إليه بانتباه شديد دون أن يقاطعه بحرف، وبغتة
رآه يشير للصبي بالخروج، فنهض على الفور مودعاً إياهما.
لبثت الدموع تنهمر من عينيه وهو يسترسل بحنجرة مثقلة بغصة بكاء و يبلع ريقه بين كلمة وأخرى، في حين يشعر ألماظ وهو يصغي إليه بأنه يستخرج مع كل كلمة حبة لؤلؤ من حنجرته الذهبية: لا أحد لي من كل هذا العالم، لستُ لأحد من كل هذا العالم، لا أحد يقلق علي إن تأخرت، لا أحد ينتظرني، لا أنتظر أحداً، أنا يتيم الدهر، لا صحة لي لأحافظ عليها، لا عضو في جسدي إلّا وبه علّة، لا نفس أتنفسه إلا وبه وخزة وجع.
كلّي أمراض، وعقد، وألغاز، وعلل، وغموض.. كلّما أردتُ الاقتراب من ذاتي، ازدادتْ بعداً عني، كلما سعيت لحل عقدة، تضاعفت العقد،

كلما أنرت جانباً مظلماً، سقطتُ في ظلمة أشد، كلما عالجتُ لغزاً، وقعتُ في شباك من ألغاز.
لا أعرف شيئا عن نفسي، إنها غريبة عني، وأنا غريب عنها، لا أخاف شيئاً، لا أحسب حساباً لشيء، كل الاحتمالات ممكنة، إنها سكرة الحياة، إنها سكرة الموت، لا فرق كثيراً.

بغتة صعد الاحتقان إلى وجهه، ازداد الوجه احتقاناً، كما لو أنه على وشك الانفجار، ازدادت العينان بروزاً كما لو أنهما ستخرجان، مدّ يده إلى بطنه، ضرط ضرطة شديدة، وعلى إثرها تقيأ ثم تناولته نوبة قيء متصلة وقد تمكن منه السكر ونال من كل مفاصله، أردف يقول بصوت منهك كسير: لا تؤاخذني يا صديقي، على هذا النمط عرفت الحياة، إنها قاسية علي، أقسى مما كنتُ أتصور.

زحفت كفه إلى الزجاجة، ملأ نصف الكأس، ثم سكب النصف الثاني ماء، ورشف نصفها رشفة واحدة، ثم وضع الكأس وضغط بكفه على بطنه: هكذا أعالج الداء بالداء، مثل دائي العويص لا دواء له غير الداء، ثم انغلقت عيناه إثر ذلك، وارتمى خده على ركام من القيء.

عندما رأته سهدة خارجاً من دكان فوزي، تقدمت إليه قائلة: أهلاً وسهلاً أستاذ، حينها خرج /أكاد/ من المشغل مرحباً به، فدخل ألماظ وألقى السلام على فتاة متوسطة الجمال، اعتاد أن يراها بين وقت وآخر تجالس أكاد في المكتب المخصص لتنظيم مواعيد العمل واستقبال الزبائن من قبل أكاد وسهدة، وفيما بعد صارا يبيعان الآلات الموسيقية أيضاً.
نهضت الفتاة التي تكن له احتراماً شديداً، ويعلوها خجل جم كلما تراه، حتى إن سهدة قالت له ذات يوم: تقول لَجين بأنها عندما تراك في المحل أو في أي مكان آخر لا تملك نفسها من الارتباك بسبب احترامها الشديد لك: أخجل منه كما لم أخجل من إنسان غيره.
فيما بعد أعلمه أكاد بعلاقته مع هذه الفتاة التي يرغب الارتباط بها، وهي فتاة مدرّسة تدرّس اللغة الإنجليزية لطلاب مرحلة التعليم الأساسي، كان أبوها قد جاء مع زوجته منذ نحو ثلاثين سنة من مدينة

اللاذقية، يعمل مدرّساً في مدارس المدينة، وبعد عدة سنوات اشترى بيتاً وقرر الانتقال النهائي إلى هذه المدينة وقد أنجب فيها بناته الثلاث، وعندما تقاعد لبث مستقراً في المدينة التي عمل وتقاعد وعقد صداقات حميمية فيها، وقد تزوجتْ ابنته الكبرى في حي مجاور له، بينما الثانية تزوجت من أحد أقربائها في اللاذقية وذهبت تعيش هناك، في حين ترغب لَجين البقاء والزواج هنا ولا تتخيل أنها تبعد عن أهلها، لذلك تقول لسهدة بأنها معجبة بشخصية أكاد ويخططان لمستقبل زوجي معاً.

في تلك اللحظات قفزت زوجته إلى مخيلته، لا يدري لماذا عادت به الذاكرة إلى الأيام الأولى لتعرفه عليها، أيام شهر العسل التي قضاها متنقلاً في أجمل مدن البلاد، الأيام الأولى التي أعلمته بأنها حامل.. عندها خطر له أن الرجل مهما قدم للمرأة فإنه لا يرتقي إلى حجم عطائها له.
عطاء المرأة للرجل عطاءٌ لا تحدّه حدود، يبلغ بها مراحلَ متقدمة يمكن أن تقدم نفسها قرباناً، بيد أن الرجل مهما اتسع في عطائه للمرأة فإنه يضع حدوداً لعطائه لا يتجاوزها، لذلك تكون المرأة صاحبة فضل عليه أكثر مما يكون صاحب فضل عليها.
غدا يعتقد أن المرأة مهما تقدمت في درجات الشر، فإنها لا تبلغ مبلغ شر الرجل، ومهما تقدم العفو في درجاته برجل، فإنه لا يبلغ مبلغ عفو المرأة.
تخيّل إذ ذاك أن المرأة ريحانة من رياحين الجنة، يستكين الرجل بطيب ريحها، ويستظل بلطف ظلها، بيد أن معضلة الرجل مع المرأة أنه عندما يتحدث مع رجل، يتحدث إليه على أنه رجل وعندما يتحدث مع طفل، يتحدث إليه على أنه طفل، لكنه عندما يتحدث مع المرأة، يتحدث إليها كما لو أنه يتحدث لرجل مُفقِداً إياها كل مزايا المرأة.
لو تذكّر الرجل جيداً وهو يتحدث لامرأة أنها امرأة، لوفر الكثير من العناء على نفسه وعلى المرأة.
إنه لا يتعامل معها على أنها امرأة سوى لحظات إيوائها إلى جانبه في الفراش، عندها فقط يدرك بأن التي إلى جواره هي امرأة، فيشرع في ملاطفتها كما لو أنها وردة، يملأ خديها بقبلات حنونة، يهمس لها بأجمل

وأرق وأعذب ما يخطر في باله من عبارات إنسانية شفافة، عندئذ تتفتح زهرة أنوثتها بين يدَيه.
وينامان نوما هنيئاً، نوم أنثى وديعة إلى جانب ذكر وديع، نوم امرأة بديعة إلى جانب بعلها البديع.
لكن الصباح يطرق على نومهما الهانئ الباب ليفسد كل شيء، لأنه ما إن يفتح عينيه حتى يعود إلى نسيانه بأن التي إلى جواره امرأة، فيطلق كلماته الرعناء الصباحية الأولى ليفسد عليها مزاجها الصباحي، ويعكر عليها صفوة استيقاظ ذهنها على ضفة صبيحة يوم جديد، فتضطر المغلوبة على أمرها أن تستجيب لرعونته على أنها رجل جلف بالغ الخشونة، كما أنها اضطرت أن تستجيب للطف حديثه ومداعبته في الليلة الماضية على أنها امرأة أنثى بالغة النعومة.
وكما أن زهرة أنوثتها تفتحت للطف كلامه، فإن أشواك زهرة أنوثتها تبرز كمخالب لتوخزه وخزة وخزة لقسوة كلامه وبطش يدَيه، وهي ترى حجم براءاتها، وحجم قسوة الرجل عليها، فهو الذي لاطف فسحة أنوثتها حتى تفتحت وردة الأنوثة بين يديه وهنأ بما هنأ طول الليل، وهو الذي أيقظ أشواك الوردة النائمة كي توخزه وخزة وخزة، وكرد فعل منه على تلك الوخزات: ينهال ضرباً مبرحاً علي، ينهال دون تمييز على كل أعضاء جسدي بأعلى درجة من وحشية كما لو أنني رجل ندّ له، وأنا لستُ رجلاً إلا في مخيلته، رجل واهن يمكن له أن يسترجل، يستزلم، يستقوى على وهني، كما لو أنني لست حمامة مكسورة الجناحين في قفصه، مستكثراً علي الدفاع عن نفسي حتى بوخزة شوكة وردة ناعمة أفاقها هو ذاته من عمق نومها.

استطاع ألماظ أن يشكل نظرة عن المرأة بالنسبة لمفهومها عن الجنس، الذي هو أوعى من مفهوم الرجل، هذا المفهوم الذي يؤهلها كي تكون أكثر استيعابا لنوازع الإنسان، وبالتالي أكثر تسامحاً من الرجل، أكثر تسامحاً ليس مع المرأة فحسب، بل مع الرجل أيضاً في زلاّته الجنسية بحيث تمتلك شجاعة أن تغفرها له، في حين لا تجد عند الرجل هذه المنارة من منارات العفو، ولذلك فإن المرأة لا تعتدي على الرجل بالقتل عندما يزل في منحدرات نزوة مهما كانت صلته بها، كذلك لا تعتدي على المرأة في زلاتها مهما كانت صلتها بها.

في حين أن الرجل لا يعدل كعدلها في هذه المسألة، حيث يغفر لابنه، أو لأخيه، أو لأبيه، في حين لا يغفر لابنته، أو لأخته، أو لزوجته، أو لأمه، بل قد لا يتردد في تصفيتها لمجرد الشبهة، وهذا لا يعني أنها لا تملك المقدرة على عقابه، بل بوسعها أن توجه إليه عقابا قاسيا كهذا مهما كان موقعه لأن الفعل هو فعل غير أخلاقي بالنسبة لكليهما في درجة متوازية، بيد أن مفهومها الأكثر وعياً لهذه المسألة يحول بينها وبين رعونة العقاب، فهي لا تقدم على العقاب بالنسبة لهما معا، لأن المساواة تأخذ بُعدها بالنسبة إلى مفهومها لهذه الزلّة.
الرجل هنا يصارح الرجل ويصارح المرأة معاً في أسرته طلبا للمساعدة إذا زلت به قدماه إلى منحدرات نزوة، بيد أن المرأة تصارح المرأة الأكثر قرباً لها فحسب تلمساً للمساعدة، ولا يخطر ببالها أن تصارح ذكراً في الأسرة حتى لو كان في العاشرة من عمره، لأن هذا الطفل يمكن أن يقدم على تصفيتها قبل أن تكمل حديثها له.

أحياناً ينظر إلى زوجته ويردد في نفسه: لو كالت الزوجة لزوجها كل صبيحة صفعة، ثم كل ظهيرة صفعة، ثم كل أمسية صفعة، لما كان له أن يرفع في وجهها سبابة إدانة، ذلك لعظمة فضلها عليه، ولعظمة شقائها معه.
لو علم الرجل هول شقاء المرأة في أسره وهو يرفع كفه لضربها لتردد ألف مرة، وكعقاب له على إلحاق لحظات ذعر لها، لوجّه ألف صفعة إلى خده.

يبدأ الرجل دوما اعتداءه الوحشي على المرأة، فتحتمل وتتقبل حجم وحشيته كي تحافظ عليه معها، كي تحافظ عليها معه، كي تحافظ عليهما معاً.
يريد الرجل للمرأة أن تغفر له كل هفواته، دون أن يغفر لها هفوة واحدة، يريد أن تغفر له كل زلات لسانه، دون أن يغفر لها زلة لسان واحدة.
مهما قدّم الرجل للمرأة من عطايا، فإنه لا يقدّم لها حقها عليه، مهما قدّمت المرأة للرجل من إساءة، فإن ذلك لا يتساوى في ميزان عظمة جميلها عليه.

مضى ألماظ صوب نغمات الموسيقى التي تصدر من مكتب الدورات، تذكر كيف أن نجد بدأ يعزف على آلة الجيتار بشكل مقبول بعد أن بذل طوني جهداً خاصاً حيث بالإضافة إلى حضور الدروس، غدا يتردد إلى البيت بين فترة وأخرى، ويعطي دروساً خصوصية له ولميرهان.
طرق الباب داخلاً وهو يشير لـ طوني أن يستأنف الدرس.
جلس على كرسي ينظر إلى الأطفال المبتدئين للتو في تلقي الدروس ابتدائية أولى لتعلّم العزف على الآلات الموسيقية التي اختاروها.

بعد قليل من جلوسه دخلت فتاتان، وبعد عدة دقائق دخل شابان وفتاة.
لبث ألماظ جالساً وهو يدرك أن درس الأطفال قد انتهى، ليبدأ درس مرحلة متقدمة بالنسبة لهؤلاء الذين حضروا وبدؤوا يجلسون على المقاعد التي تركها الأطفال.

قال طوني: ابق معنا أستاذ ألماظ، هذه المرحلة هي مرحلة الأغاني المتوسطة، سوف أجعل أفضل طالبة عندي تعزف لك أفضل أغنية لديك.
ثم أخذ يشرح له كيف أن المرحلة المبتدئة تبدأ بمقطوعات موسيقية قصيرة سهلة الحفظ ، ثم تتحول المرحلة الثانية إلى مقطوعات موسيقية وأغان متوسطة الطول، ثم تنتقل إلى المرحلة الثالثة، وهي مرحلة عزف الأغنيات والمقطوعات الموسيقية الطويلة، حيث يقبل الطالب على التخرج، وعلى الأغلب يكون ذلك في نهاية السنة الثالثة من بدء التدريب.
دخل رجل بشكل سريع مع طفله الذي يحمل عوداً، وهو يعتذر للمدرس عن تأخره.
هز طوني رأسه بالإيجاب، فراح الطفل يجلس بين الطلاب، في حين جلس الرجل بجانب ألماظ بأدب جم ملقيا عليه التحية، عندئذ سرت نفحة نشوة في أوصال ألماظ والرجل يبرك إلى جواره، لا يدري لماذا انتابه إحساس بأنه رجل لطيف، مسالم، طيب، وخطر في باله أن يقارن بين رجلين، أحدهما يهدي ابنه آلة موسيقية، والثاني يهدي ابنه مسدساً.

همهم في سره: عندما يهدي الأب ابنه آلة موسيقية، فذلك يعني أنه يهيئه كي يقدم الموسيقى إلى الآخرين.
وعندما يهدي الأب ابنه مسدساً، فذلك يعني أنه يهيئه كي يقدم الرصاص إلى الآخرين.
عندما يدخل الكبير عالم الأطفال، يدرك حجم بعده عن مساحة براءة الطفول، يدرك حجم ما ألحق بنفسه من تجاوز،
يدرك كم على الإنسان أن يعاتب نفسه، كم عليه أن يهذّب نفسه، كم عليه أن يعالج سوء الظن في نفسه.

لا تنس للحظة واحدة يا ألماظ بأنك سوف تنظر بعين واحدة وتقف على قدم واحدة عندما تؤازر نفسك على أخيك، وأنك سوف تنظر بعينين وتقف على قدمين عندما تؤازره عليك.
إنك تحتاج إليه كي يقول لك بأنك على صواب أكثر من حاجتك إلى نفسك كي تقول لك بأنك على صواب.
ليس من مظهر القوة أن تقابل خطيئة المخطئ بالعقاب، لكن من مظهر القوة أن تقابل خطيئته بالعفو.
عندما تقابل خطيئته بالعقاب، فإنك تبدو في نظره وفي نظرك صغيراً، وعندما تقابل خطيئته بالعفو، فإنك تبدو في نظره وفي نظرك كبيراً.

تكمن مفاصل قوتك كلما تنجح في تدريب نفسك على استيعاب أهل الخطيئة بحقك، وتكمن مفاصل وهنك كلما تفشل في استيعاب أخطائهم.
تذكر دوماً أن مرتكب الإساءة قد لا يكنّ لك بغضاً، بل يكن لك مودة عظمى، إلا أنه عّبر عن قوة مودته العظمى بتلك الإساءة إليك، عند ذاك لا تفصح تلك المودة عن نفسها إلّا بمسحة عفو منك عما تراكم عليها من غبار.
لا تنس طرفة عين أن حاجة هؤلاء كي يحبوك، هي أعلى من حاجتهم كي يمقتوك،
تذكر أن حاجتهم كي تحبهم، هي أعلى من حاجتهم كي تمقتهم.
كما أن حاجتك كي تحبهم أعلى من حاجتك كي تمقتهم، وحاجتك أن يحبك هؤلاء أعلى من حاجتك أن يمقتوك.
ثمرة العفو أكثر نضجاً من ثمرة العقاب.

ثمرة العفو أنكه طيباً من ثمرة العقاب.
ثمرة العفو أعلى صحة من ثمرة العقاب.

في تلك اللحظات خطر له أن الإنسان مهما تبدّى إليه بأنه قوي، فهو ضعيف،
مهما تبدّى إليه بأنه ضعيف، فهو قوي.
يستمد الضعف مقوماته من القوة، وتستمد القوة مقوماتها من الضعف.
عندما يريد الإنسان أن يكون قوياً، فإنه سيصبح قوياً، وعندما يريد أن يكون ضعيفاً سيصبح ضعيفاً.
عندما يريد الإنسان أن يكون شجاعاً، فإنه سيصبح شجاعاً، وعندما يريد أن يكون جباناً، فإنه سيصبح جباناً.
عندما يريد الإنسان أن يكون قواداً، فإنه سيصبح قواداً، وعندما يريد أن يكون عفيفاً، فإنه سيصبح عفيفاً.
عندما يكون المرء مع نفسه، فَمَن سيكون عليها؟
وعندما يكون المرء على نفسه، فَمَن سيكون معها؟

دخلت سهدة وتقدمت على الفور من ألماظ هامسة في أذنه أن صديقه الدكتور ريزدار ينتظر في المكتب.
المعذرة، قالها للرجل المجاور له، ثم لوح كفه بالشكر لـ طوني، ونهض خارجاً إلى ضيفه.
عند دخول المكتب وقعت عيناه على ريزدار الذي كان يجلس على أريكة: مرحباً بك يا عزيزي.
قالها ألماظ مصافحاً صديقه الذي نهض قائلاً: ألف مرحبا أستاذ ألماظ.
بعد قليل قدمت سهدة كأسين من عصير البرتقال مع صحن من البندق.
قال ريزدار : يا رجل، غريب أمر هذا الليل، إنه يخيّم ككابوس على البلاد والعباد ولا بصيص ضوء حتى من بعيد ؟!
قال ألماظ: الآن يمشي إنشاز بشكل جيد، هذا يعني بأننا أمضينا سنتين حتى الآن دون أن نرى الشمس.
ثم أردف يقول: أتعلم يا ريزدار أنني لم أحن إلى شيء قدر حنيني إلى منظر شجرة عامرة بالورد في أوج الربيع؟ أنظر إلى خيوط الشمس

تداعب خصلات شعرها على أنغام شدو البلابل ورذاذ خفيف من المطر.
هل كان ذلك واقعاً؟ كانت الشمس تشرق كل يوم علينا، تشعرنا بدفء الحياة، كنا ننهض ونمشي تحت أشعتها.
لا تتصورُ يا عزيزي كم اشتقت إلى ذاك الشروق الذي يبدو بعيد المنال.
تناهت طرقات خفيفة على الباب قاطعة حديثهما، فقال ألماظ: تفضل.
اندفع الباب ليدخل الدكتور إسحق برفقة /شرف/ وهو كاتب قصص ساخرة يظهر كثيراً مع الدكتور إسحق في الأماكن التي يتردد إليها .
ألقيا التحية عليهما، فنهضا واستقبلاهما بترحاب.
قال ألماظ: تفضل صديقي الجميل.
قال ريزدار: أهلا وسهلا حكيم كيفك؟
ـ بخير.. عايشين في هذا الليل الطويل.
ـ كيف كاتبنا الظريف؟
قال شرف: تمام دكتور.

بعد قليل دخلت سهدة حاملة سفرة عليها كاسات شاي مع علبة عسل إلى جانب صحن بتيفور. وضعت ملعقة عسل في كل كأس، ثم راحت تسكب الشاي وتقدمه إليهم، وقد وضعت صحن البتيفور في الوسط، ثم حملت السفرة السابقة خارجة، عندئذ قال لها الطبيب: خذي بالك من الحمار.. تأكدي إن كنت ربطته مليح.
قالت : أمرك دكتور، أنت وحمارك في عيوني.
ابتسم الجميع، فقال ألماظ: خير دكتور؟ ليش ما ركبت البسكليت؟
قال: أخي، والله صحتي ما تتحمل سوق البسكليت مسافات طويلة، أحياناً تتقلص عضلات ركبتي، والحصان يا أخي عالي، أخاف أقع منه، وأحتاج إلى مَن يحطني فوقه، وينزلني، أحسن شيء الحمار، خفيف ونظيف ومريح، وصديقي /شرف/ راكب خلفي مرتاح.
قال ألماظ: أصحاب مغاسل السيارات خيراً صنعوا عندما تحولوا إلى غسل الحمير والخيول والدراجات.
قال الطبيب: عندما يراني عمال المغسلة على الحمار يقولون: أهلا بالراكب والمركوب.

يضيفونني شيئاً حتى يغسلوا الحمار بالمساحيق، ثم ينظفوه ببخ مياه غزيرة عليه كما كانوا يفعلون مع سيارتي، بعد ذلك ينشفونه بمنشفة حماري الخاصة التي يحتفظون بها عندهم.
مسكين هذا الحمار، عندما أُحس بأنه انتعش وصار أكثر لياقة - ضحك قليلاً ثم استأنف يقول- آخذه إلى حمارة صديقنا /أبجر/ حتى يأخذ حقه ولا يبقى مكبوتاً، لأنه عند ذاك قد يرميني من ظهره جزاء على اضطهادي، وتسببي في حرمانه من حق طبيعي له. عندما يراني أبجر يقول: سوف نحتفل بالعريسين؟
فأضطر إلى الجلوس والاسترخاء، وترك حماري في الخارج.
أرى صديقي يحضر مائدة صغيرة، ثم يذهب ويدخل حماري الذي ما إن يرى حمارته حتى يطلق نهيقاً علامة لمدى شوقه، فتستجيب حمارته بنهيق مشابه.
عندها نتناول الطعام والشراب ونحن ننظر كيف أن حماري يطارد حمارته بذكره المنتصب الذي كان مختفياً، وما إن رأى الحمارة حتى أخذ في الانتصاب.
تتدلل الحمارة عليه، وتدّعي بأنها تتهرب منه، فيلاحقها ويقذف بجسده على ظهرها حتى يتحكم منها، ويعانق الحبيب محبوبته.
إنه يعلم جيداً أن ضالته موجودة في حوزتها، كما أنها تعلم جيداً أن ضالتها موجودة في حوزته.
يروق الجلوس لـ /أبجر/ وهو ينظر إلى تفاصيل المشهد ويدخن غليونه مع كأس من الجعة، وبعد قليل يوقد الفحم ويبدأ في شَيّ الكباب.
في تلك اللحظات يوسوس له الشيطان فيقول قولاً لا يصرّح به إلا في موقعة كهذه، حتى إنني عندما أصدفه بعد ذلك في مكان ما، ألمح الخجل بادياً على وجهه وهو يحدثني، وقد احمرّت عيناه، لكنه يسارع في القول: لا تؤاخذني حكيم، المشروب يحكّي.
فأقول: لا يهمك يا صديقي.
عندما أشعر بأن حماري نال مبتغاه، وهدأ روعه، أتهيأ للنهوض، فيضع كفه على كفي قائلاً: يا رجل لا تفسد عليهما أجمل لحظات الاستمتاع ببهجة الحياة، ألا يستحقان أن نكافئهما على تحملهما مشقتنا ومشقة ما نحمل من أغراض؟

يستجيب لنا هذا الحيوان المسكين، وهو يحملنا مع أغراضنا دون أن يعترض.
عندما تنتهي السهرة، نثمل جيداً، وتروق بنا اللحظات، يقول أبجر: الآن يا صديقي ليس هناك أفضل من حضن الزوجة.
فأعلم بأنه سوف يأذن لي بالعودة إلى البيت، أركب حماري الذي يبدو مسترخياً وواهناً، وأنا أستعجل به كي يوصلني إلى ذاك الموضع الذي ليس هناك أفضل منه كما قال أبجر أفندي.

قال ألماظ: فكرة مذهلة، ثم التفت إلى ريزدار قائلاً: ألديك حمار وسيم يا صديقي؟ توجد لدي حمارة جميلة.
بعد ضحك مجلجل قال ألماظ موجهاً كلامه إلى شرف: هل كتبت شيئاً جديداً يا أديبنا الظريف؟
قال : أكيد.. لأنني أتنفس كتابة.
قال إسحق: يا سيدي، لا شيء يجعلني أضحك ضحكاً عميقاً بقدر قصصه الساخرة، أحياناً أقرأ قصة له كشيء من العلاج النفسي.
قال ريزدار: قصتك الأخيرة التي أعطاها لي الدكتور إسحق كانت رائعة، صورتُ منها مئة نسخة ووزعتها على أصدقائي.

قال إسحق: في البدء أسماها /ضرطة الرئيس/. وعندما جلبها لي اقترحت عليه تغيير اسمها إلى /الريح/.
قال شرف: أخيراً وفقنا بين رأيه ورأيي، فصار اسمها /ريح الوالي/ .
كان شرف قد كتب بلغته الساخرة قصة قصيرة عن رئيس يرأس اجتماعا لوزارته بحضور بعض وسائل إعلامه الرسمية، وفجأة صدر صوت من قفا الرئيس أسمع الجميع، فأدركوا أنه أخرج ريحاً، فلم ينبس أحد ببنت شفة.
عندما تحرك الرئيس وأعدل جلوسه، صدر منه صوت آخر, فاضطر إلى الاعتذار لأنه يعاني بعض الغازات منذ ليلة البارحة بعد أن تناول على العشاء كبة مقلية وطبقاً من شوربة العدس دون أن يعصر عليها الليمون، وما زاد في ذلك أنه تناول فجلتين.

في تلك اللحظات مدّ يده إلى علبة المحارم وسدّ أنفه عن الرائحة الكريهة التي انتشرت بقوة في أرجاء القاعة، فهب وزير الصحة قائلاً: أتعرف يا سيادة الرئيس أنني قبل أن أدخل القاعة كنت أعاني من ألم شديد في رأسي، ولكن بعد أن تبركنا بريحكم الكريمة زال الألم من رأسي.
وجه إليه الرئيس نظرة استغراب وهو ما يزال يسد أنفه، ثم وزع نظراته على وجوه الوزراء الذين ركنوا إلى صمت مهيب.
قال وزير البيئة: يا سيدي لم يبق نوع من الورد من بلادنا، إلا وشممتُ ريحه، لكن أقسم لك بأن أنفي لم يحظ قط بريح طيبة ومنعشة كهذه الريح الطيبة التي خرجت مباركة من سيادتكم، إنها أطيب من رائحة المسك، كيف لا وقد أتت من ولي نعمتنا؟ إنها ريح استثنائية، كيف لا تكون كذلك وقد أتت من رجل استثنائي وزعيم لا مثيل له على الإطلاق في عصرنا؟ حيث هو القائد الأوحد للأمة، ومعلّمها الأول، ومحاميها الأول، وقاضيها الأول، ومصحح مسارها الأول.

كان يتحدث والرئيس يركز نظراته في سماته، وقد أنزل قليلاً من المنديل عن أنفه.
عند ذاك هب وزير الأوقاف قائلاً: لو كان الأمر بيدي يا فخامة الرئيس، لقلت للطباخ أن يطعمكم أمسية كل اجتماع كبة مقلية، وشوربة، وفجلتين حتى تجودوا علينا بريحكم الطيبة المباركة التي أنعشت قلوبنا ونفوسنا، إنها أطيب من كل ريح تطيبنا به.
إذ ذاك تنحنح وزير الثقافة في كرسيه وقال: سمعت سيمفونيات العالم، وأعذب المقاطع الموسيقية، لكنني يا سيادة الرئيس لم أسمع من قبل أرق وأعذب مما جدتم به على أسماعنا، ولو كان الأمر بيدي وما دامت الكاميرات قد سجلت هذا الحدث التاريخي، لأوعزت كي تُدخل الفرقة الموسيقية الوطنية هذا الإيقاع العذب إلى نسيج النشيد الوطني.
عندئذ أنزل الرئيس المنديل عن أنفه، وصار يتشمم لعله يحظى بنسمة من تلك الريح.

قال ألماظ: كلما أراك يا شرف، أذكر قصصك، عندما أهديتني ذات مرة قصة /الختان/ رويتها على أسماع العشرات من أصدقائي.

ضحك إسحق قائلاً: قرأتها للكثيرين، لكنني عندما قرأتها لأبجر، أصر أن أحضر إليه شرف كي يتعرف عليه، فكان له ذلك.

كان شرف قد كتب قصة قصيرة ظريفة مفادها أن حاكم البلاد أصدر عفواً عاماً عن المساجين في بلاده بمناسبة ختان نجله، شمل العفو آلاف الأشخاص الذين خرجوا من السجون وعبّروا عن شكرهم لمكرمة الحاكم بهذه المناسبة الطيبة.
وفي اليوم التالي بينما كان نجل الوالي يتجول في المدينة، هرع إليه من وسط جموع الناس أحد الذين شملهم العفو وصار يقبّل يديه قائلاً: لولاك لكنت الآن سجيناً يا سيدي.
فضحك النجل وهو يلقي نظرة سريعة إلى أسفل بطنه متمتماً: الأصح.. لولاه.
فقال السجين وهو يأخذ الأمر على سبيل الظرافة مصوباً نظره إلى أعلى ساقيه: كل عام وهو بخير.
قال النجل يداعبه: إياك أن تُسجن مرة أخرى، لا يوجد لدي غير واحد وقد خُتِن.
أجاب مبتسماً بذات الدعابة: سلامة النجل الأصغر لمولانا يا سيدي.
عندئذ طبطب على رقبته قائلاً: يا شيطان.
ومضى في الطريق محفوفاً بقامات مرافقيه.

قال ألماظ: موضع الأديب من المجتمع، هو موضع القلب من الجسد، ليس بوسعنا أن نتخيل حجم فضل أصحاب تلك الأهرامات الأدبية الفذة على البشرية، كل كتاب ينبض بخفقات قلوب أبناء الإنسان.
قال شرف: عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من رجل الدين، فعليه أن يعتذر من قلمه.
عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من رجل السياسة، فعليه أن يعتذر من قلمه.
عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من عالم الاجتماع، فعليه أن يعتذر من قلمه.
عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من عالم التربية، فعليه أن يعتذر من قلمه.

ذلك أن الأديب هو رجل دين بامتياز، ورجل سياسة بامتياز، وعالم الاجتماع بامتياز، وعالم تربية بامتياز.
وإن كان دون ذلك، فهو لا يرتقي إلى درجة أن يكون أديباً.

* * *

عندما استفاق, رأى أولاده يلعبون في الغرفة المجاورة، كانت ميرهان تعزف بأصابعها على أوتار الكمان كما لو أنه آلة عود.
عندما يكون الطقس شديد البرودة اعتاد أن يستحم في الأسبوع مرتين حسبما يقدّر الوقت، أما عندما يكون الطقس دافئاً، فإنه يستحم بماء بارد كلما استفاق من النوم لأن الأمر لا يحتاج إلى تسخين، ولا يحتاج إلى تدفئة البيت بشكل جيد.
يفتح الدش على جسده حتى يكتفي، ثم يرتدي ثيابه الصيفية ويخرج.

بعد انتهائه من الحمام، صنعت زوجته طعاماً، فتحلقوا حول السفرة التي هي سفرة صباحية لأن تقى أيضاً ستخرج إلى دوامها بعد ساعة بواسطة العربة التي صممتها الروضة لهذا الغرض، وهي عربة خشبية واسعة سُوّجَت على الدائر بقطع خشبية لحماية الأطفال من السقوط، وفي الشتاء تُغلَق بواسطة جادر لحمايتهم من الهواء البارد والمطر، تتسع لنحو ثلاثين طفلاً مع السائق والمرافقة، يجرها ثلاثة أحصنة على قدر جيد من العزم. وقد تم تزويدها زُوّدَت بمدرّج من الخلف كي يستخدمه الطفل في الصعود والنزول، كلما يصل السائق إلى بيت طفل، يضغط على المنبه البلاستيكي، فيصدر أصواتاً تنبئ بوصول العربة إلى الباب.

خرج ألماظ يقود دراجته الهوائية ببطء شديد متجهاً صوب مشغله وهو يرسل ويستقبل تحايا الصباح من المعارف.

بعد قليل من المسير، لفت نظره جمع من الناس، فأمال وجهة الدراجة إلى حيث التجمع، عند ذاك رأى الطبيب /سمران/ راكباً حماره، والصبيان يستهزئون به ويرمونه بقاذورات وهم يرددون وسط الضحكات: خذ دكتور حبة وجع رأس.
ثم يصرخون به: دكتور.. دكتور حمارك ضرّط.
يتقدم منه بعض الصبيان، ينزلونه ويركبونه بالعكس على الحمار، ثم ينهالون ضرباً على الحمار الذي يرفس وينتفض حتى يرتمي سمران منه فيقول: أخ يا أولاد الكلب.
كان سمران طبيباً مشهوراً في المدينة، لكن ما إن أخذت مظاهر الثراء تبدو عليه حتى أخذ الناس ومنهم زملاؤه يلحظون تصرفات غريبة تبدر منه.
كانت ممرضته أولى ضحايا هذه السلوكيات عندما فوجئت به في ذروة عمله يطلب منها أن تقاسمه أجرَها من الحُقن التي تحقنُها للمرضى.
قالت له : دكتور عندما لم يكن يدخل عيادتنا أكثر من خمسة مرضى، لم تطلب مني ذلك، كنتُ أعمل معك بشكل شبه مجاني لأنك كنت جديداً في المهنة، وكنتَ تقول لي: اصبري سوف ترين هذه العيادة مليئة بالمرضى حتى تضيقي ذرعاً بهم، الأمر لا يحتاج إلاّ إلى قليل من صبر.
وعندما طلبت مني أن أروّج لك، لم أتردد من الكذب على الناس، ونشر أخبار عنك لا أصل لها من الصحة.

كنت أستغل أي تجمع للنساء، في حفلات الأعراس، في خيم العزاء، في الدوائر الرسمية، أمام أبواب المؤسسات الاستهلاكية، في المخابز، وأنا أشيع أخباراً كنت تلقنها لي من مخيلتك، إن نسيت، سوف أذكرك يا حكيم، ألا تذكر تلك الشائعة التي ما أزال أحفظها لأنني رويتها عشرات المرات في عشرات الأماكن: منذ مدة جاءنا مريض فاقد الأمل وقال بأنه لم يترك مدينة من مدن البلاد إلا وذهب إلى أطبائها دون أي فائدة، وعندما كشف عليه الطبيب سمران قال: مرضك ناشئ من كل تلك الأدوية التي تناولتها، لا شيء بك سوى مرض بسيط.
ثم أعطاه علبة واحدة من الحبوب، وطلب إليه أن يبقى مستلقياً على ظهره ثلاثة أيام لا يتناول خلالها سوى سلطة لبن وخيار وثوم، وثلاث

كاسات شاي صغيرة واحدة صباحاً، وواحدة ظهراً، وواحدة مساءً، وثلاث تفاحات، وثلاث بصلات يابسة، وحبتي بندورة واحدة ظهراً، وواحدة عشاء، وكأسي عصير البرتقال الممزوج بليمونة قبل النوم بربع ساعة.
عاد إلينا المريض في اليوم الرابع معافى.

وكذلك تلك التي قلت فيها: جاءتنا مريضة بعد أن قال لها ثلاثة أطباء أنها بحاجة إلى عملية جراحية، بعد أن كشف عليها طبيبنا، قال: لا عملية ولا مَن يحزنون، أنتِ تحتاجين إلى إبرة واحدة.
أعطاها الطبيب إبرة من عنده مجاناً، ذهبت المريضة وعادت إلينا بعد أسبوع للمراجعة وهي بلياقة حصان.
عندها حلفت للطبيب بأنها لن تدخل عيادة طبيب غيره.

أما الكذبة التي صدقها الناس وكانت خلف التحول الكبير في عملنا، كانت عندما استعنتُ بصديقة لي كي تشيع في خيمة عزاء أن أحد المرضى الذين أخبر الأطباء ذويه كي يغسلوا أيديهم منه، لأن لا أمل في علاجه، قد رأى في الحلم شخصاً يرتدي جلباباً ناصع البياض يقول له: اذهب إلى الطبيب سمران، علاجك عنده.

عندما استيقظ المريض من نومه وكانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، طلب أن يأخذوه على الفور إلى عيادة الطبيب سمران.
قالوا: الوقت مبكر، الدكتور نائم الآن
قال: خذوني إليه الآن لأنه ينتظرني في العيادة.
عندها أذعنوا للأمر تحت إلحاحه وكأنهم يأخذونه مسايرة لمرضه إلى العيادة في تلك الساعة المبكرة.

بوصولهم إلى العيادة، بهتوا حين رأوا الطبيب لوحده يجلس في العيادة وكأنه
ينتظرهم.
عندما رآهم الطبيب، نهض من كرسيه وأسرع في القول: ادخلوا المريض بسرعة إلى غرفة المعاينة.

أجرى له الفحوصات على الفور، ثم أخرج حقنة من درج مكتبه وحقنها للمريض لأن الصيدليات مغلقة في هذا الوقت المبكر، ولا يريد أن يعذبهم ليبحثوا عن صيدلية مناوبة.
في تلك اللحظات أحس المريض براحة، فتنفس الصعداء وهو يشكر الطبيب.
بعد قليل كتب له وصفة وطلب إليهم العودة إلى البيت والحرص على بقاء المريض مسترخياً دون أن يتعرض لأي إزعاج مهما كان سببه.
قبل خروجهم من باب العيادة قال لهم الطبيب: لو بقي مريضكم ساعة أخرى دون هذه الحقنة لكانت عليه الرحمة، لأنني فجأة انتفضت من النوم في الخامسة والنصف، وكأن أحداً همس لي بأن علي الإسراع إلى العيادة لإنقاذ حياة مريض سوف يأتي في
الحال.
في البداية ظننتُ بأنني أتوهم ذلك، لكن الهمس تكرر في سمعي حتى ركبت سيارتي وجئت أنتظر في العيادة، وعندما رأيتكم تأكد لي ذلك، يبدو أن مريضكم له
مكرمات.

شاعت هذه الأقاويل في الناس بسرعة البرق، وبدأت العيادة تغص بالمرضى حتى صرت تعاين في اليوم سبعين مريضاً.
الآن يا حكيم بدل أن ترفع من أجري وتكافئني، تريد أن تقاسمني تعبي في ضرب الإبر؟!
كان يسمع دون أن يرد وكأنه يشرد بشيء آخر، وعندما رأته مصراً على طلبه، اضطرت للقبول كي تبقى في عملها الذي اعتادته وأصبح جزءاً منها.

ومن الوقائع التي يرويها الناس عن شحه بعد ظهور بوادر الغنى عليه، أن زميلاً له عندما أُصيب بوعكةٍ وأتى لاستشارته، فوجئ بالممرضة تطلب منه معاينة قبل دخوله إلى الطبيب، وعندما قال لها أنه زميله وصديقه، استأذنته كي يجلس قليلاً، ثم دخلت إلى غرفة الطبيب، ثم خرجت طالبة منه أن يدفع قيمة المعاينة إذا كان راغباً في الدخول لأن هذا مكان عمل فقط ، أما الزيارات الخاصة فلها أمكنة أخرى، فاضطر

الرجل أن يدفع كما لو أنه ليس صديقا شخصياً له وزميلا في ذات المدينة.
مضى الأمر على ما هو عليه، وهو يزداد سلبية في علاقاته الشخصية والاجتماعية وحتى المهنية، بحيث بدأ يتعاقد مع الصيادلة، وأماكن التحليل المخبري، والتصوير الشعاعي، حيث يرسل إليهم المرضى بشكل حصري حتى يحصل على نسبة من أجرهم، ويقاسمهم في أرزاقهم، فيضطر هؤلاء إلى إضافة هذه الزيادة إلى حساب المريض نفسه، ليأخذوا منه أجرهم، وحصة الطبيب الذي أرسلهم.

ذات صباح وقبل أن يحل الظلام الطويل بنحو سنة، فوجئت به الممرضة داخلاً عيادته في الصباح وهو ببيجامة النوم، يتحدث كما لو أنه يهذي.
في البداية تقبلت الأمر ظانة بأنه يمازحها، وسيعود إلى بيته كي يرتدي بدلته لأنه ربما اضطر للخروج ببيجامة النوم كي يشتري بعض الحاجات للبيت ويعود.
لكن بدلاً عن ذلك تبيّن لها وللمرضى بأنه غير طبيعي عندما طلب أن تُدخل إليه مريضاً.
اعتذرت الممرضة للمرضى الذين كانوا في انتظاره قائلة بأن الطبيب في عجلة من أمره وسوف تغلق العيادة اليوم، ثم اتصلت بزوجته التي أتت على الفور وأعادته إلى البيت.

عندما طال به الأمر، اضطرت زوجته أن تأخذه إلى طبيب للأمراض العصبية، فأخبرها بأنه مصاب بداء الزهايمر، الأمر الذي أدى إلى تأجير العيادة إلى طبيب جديد، وبقاء الممرضة على رأس عملها في العيادة.
من يومها اعتاد الناس أن يروه على هذه الحال في شوارع المدينة ليلاً نهاراً، ولا أحد من أهله يستطيع أن يكبح جماحه، حيث يخرج أحيانا ببيجامة النوم، وأحيانا يحمل بيده زجاجة خمر ويرتشفها في الشارع، يتردد إلى أكثر الأماكن زحاماً بالناس، يرفع صوته بشكل مفاجئ بعبارات غامضة كأنه يصرخ بأعلى صوته في وجه شخص ما، وأحياناً يذهب إلى عيادته، يريد أن يعاين المرضى الذين يضحكون

ويسخرون به، حتى يهدئه الطبيب الذي يشغل عيادته، ويعيده إلى البيت.
توقف ألماظ قليلا وهو ينظر إلى المشهد ويستذكر سيرة هذا الرجل الذي غدا أشهر شخصية ظريفة من شخصيات المدينة، ثم ما لبث أن استأنف سيره صوب المشغل.

* * *

أيتها الشمس الرحيمة، أما من زيارة ولو خاطفة في الأفق؟
أجسادنا حنّت إلى دفئك.
عيوننا حنّت إلى أنوارك.
أصابعنا حنّت إلى خصلات شعرك.
بيوتنا حنّت إلى ذراتك.
إننا يتامى، ثكالى يا أمنا..
لا حياة لنا، لا مستقبل لنا دونك يا شمسنا المجيدة.
كل الأوقات هي وقت واحد..
كل الأيام هي يوم واحد..
كل الشهور هي شهر واحد..
كل الساعات هي ساعة واحدة.

إنها تدور، بَيدَ أنّها دون إشراقتك الصباحية، لا تدور.
تعالي أيتها الشمس، كوني لنا ولا تتركينا نرتعش ونَمُتْ في صقيع الليل، لقد أصاب عَفَنُ الليل مفاصل أرواحنا.

مطرٌ لم يروا له مثيلاً، رعودٌ لم يروا لها شبيهاً، بغتة امتلأت الطرقات بمياه الأمطار، سُدت المجاري الصحية، لم تعد مزاريب الأسطحة قادرة على صرف المياه المتراكمة، سكان الأقبية اضطروا إلى تركها بسبب نزول مياه الأمطار وتراكمها في مساحات الأقبية، وما جعل الناس في هول وذعر أن الوقت يمضي دون أن تتوقف الأمطار.
تجمّع الناس في الشوارع يسعون إلى فتح المجاري الصحية، إلى إيجاد تصريفات وفروع للمياه المتراكمة.
وهب البعض لنجدة سكان الأقبية وسط أزيز ريح شديدة زمهريرية تلفح الوجوه والأبدان.
بين حين وحين ينتشل الناس جثة من وسط السيل الجارف، وتمضي جثث أخرى على مرآة الناس دون أن يتمكن أحد من انتشالها بسبب قوة البرد والريح وغزارة الأمطار وإرتفاع المياه.
أطفال، نساء، شيوخ، شبان، يجرف السيل كل مَن يتمكن منه دون تمييز.

إضافة إلى ذلك أخذت الصواعق تضرب بعض الناس والبيوت وتحرق كل شيء في طوفان بدا لا نهائياً، حتى الذي لم يجرفه السيل ولم تصبه شظايا صاعقة مات من هول الرعب والبرد والذعر.
تكهن الناس أن ستة أيام مضت على كارثتهم الإنسانية الفظيعة حتى بدأت الريح تضع أوزارها، والأمطار تخف، والسماء تفسح عن احتقانها، وبدأت تشكيلات القوس قزح التي ظهرت في السماء كأجنحة أمان تبعث الطمأنينة في الناس.

أدركوا أن ظهور قوس القزح هو علامة أمان من السماء لهم، فخرجوا من بيوتهم منهكين وقد هدهم الجوع والذعر والبرد والنعاس، كمن ألقى به جموح إعصار أهوج إلى عمق ظلمات محيط قاحط رهيب، ثم بعد استسلام لمصير معتم تباعدت رموشه عن تشابكها بعد كوابيس مفزعة ليستدرك لمحة لمحة، نظرة نظرة، خطوة خطوة، رويداً رويداً رحابة أطلال موطنه الذي أُعصر به منذ دهر قاتم.
هكذا بدا لـ تقى وهي لا تكاد تصدق عينيها، هل هي في حلم؟ أم هي سحرية دهشة اليقظة؟
هكذا كما أن الإنسان يُبعث من جديد، يُعاد تشكله عضواً عضواً، شهقة شهقة، زفرة زفرة، رؤية رؤية، يقظة يقظة.
تنظر غير مصدقة لمسات نزوح الظلام، وزحف الضوء الذي يتقدم شروق الشمس وكأنها كانت مشلولة ونُفخ فيها لتعود بشكل أكثر بهاء، أكثر ألقا، أكثر إشراقة، أكثر حنيناً إلى أبنائها الذين تركتهم في وحشة العتمة.

تسربت منها نظرة إلى بعلها المستسلم لسكينة لفائف نوم عميق، مسحت الأولاد بنظرة أكثر يقظة: ألماظ.
هتفت ببحة لتزداد ثقة بما ترى، انتظرت لحظات دون أن يرد.
جلست في الفراش، امتدت كفها إلى كتفه في لحظات مصيرية حاسمة إن كانت في حلم، أم أنه واقع حسي: ألماظي.. افتح عينيك.

امتدت راحة كفها إلى جبهته كأنها تتحسس حرارته، أنزلت الأنامل إلى عينيه المغلقتين: افتحهما ستريانك ما هو أبهى من أي حلم.

عند ذاك بدأ يتحسس لمسات أناملها، فتح عينيه لينظر إليها نظرة واحدة، ثم ابتسم عائداً إلى غلق عينيه وقد ترك قبلة على ظاهر أناملها.

انحنت تقبله من عينيه هامسة: هلا فتحت هاتين اللؤلؤتين؟
فتح عينيه، ثم أغلقهما بسرعة، ثم عاد إلى فتحهما، مد كفه يفركهما وهو يحدّق ملياً في قسمات وجهها، ثم ينظر إلى الضوء الذي يدخل من النافذة، وينير ظلمة البيت.

هب واقفا كي يزداد يقيناً أنه في يقظة وليس في حلم، أشبك كفه بكفها وخرجا إلى الحوش، ثم إلى الشارع ليريا اللحظات الأولى من امتداد خصلات الشمس، واللحظات الأخيرة من نزوح بقايا أنفاس العتمة مع زخات خفيفة من رذاذ المطر.
آبا بخطواتها المتعثرة كشخص واحد، أيقظا الأطفال, ثم خرجوا جميعا ليعتلوا السطح، وينظروا إلى شمسهم التي بدت في صعودها الأولي شطر كبد السماء متجاوزة آثار غيوم داكنة.

امتلأ الحي من حولهم بالزغاريد والأغنيات والدبكات، خرجوا إلى الشوارع على شكل أفواج وجماعات، لم يبق أحد في البيوت.
كل شخص يصافح الآخر ويحتضنه مهنئاً إياه على عودة الشمس سالمة إليهم: مبارك علينا عودة شمسنا يا أخي.

والمرأة تحتضن المرأة باكية بكاء فرح عذب وهي تتمتم: مبروك مبارك لنا عودة شمسنا المباركة يا أختي.
اكتظت شوارع البلاد كلها بالناس محتفلين بقدوم الشمس المباركة وكأنهم يحرسونها ويضحون بأي شيء إرضاءً لها.

أمام ذلك، أعلن أصحاب المحلات فتح أبواب محلاتهم مجاناً للناس جميعاً لمدة ثلاثة أيام في عرس مفتوح كبيرعلى امتداد رحابة البلاد.
امتدت الأهازيج والاحتفالات حتى ميلان الشمس شطر الغروب، حينها وكأنهم كانوا في حلم واستيقظوا، راودهم وجل أن شمسهم التي أخذت تجنح شطر المغيب لن تعود إليهم ثانية.

توقف الجميع عن الدبكات والأهازيج، وقد خيّم صمت على البلاد عند لحظات الغروب الأولى.
تسرب الذعر إلى البعض، عبست وجوه البعض مع عودة العتمة واحتلالها أرجاء البلاد بكامل حلكتها ونفوذها وكأنها ليست هي التي جرّت أذيال الهزيمة عندما تقدم سلطان الشمس منذراً بقدوم سيدته منذ ساعات قليلة.
لم يعد أحد إلى بيته، لبثوا على جناح قلق ينتظرون بصمت وترقب حتى أخذت الأهازيج والأغنيات تتعالى مرة أخرى على وقع الدبكات عندما لاح لهم سلطان الشمس متقدماً إياها وطارداً نفحات العتمة التي بدأت تلملم شتائها مهرولة.
بعد قضاء الأيام الاحتفالية الثلاثة، بدأت الحياة تعود إلى طبيعتها، وبدأ الناس يعودون إلى أعمالهم حيث أعيد التيار الكهربائي إلى أرجاء البلاد، وبدأت المحروقات تملأ المحطات، الأمر الذي أعاد حركة السير إلى الطرقات، وبدأت الهواتف الأرضية والخلوية تفعّل تغطيتها.
غدت مظاهر الحياة الحديثة تشق طريقها لتتفاعل مع إيقاع الحياة كما لو أنهم يكتشفونها أول مرة، يستخدمونها بحذر شديد وكأنهم يروّضون أنفسهم لعودة الانسجام معها.

أقبل الناس على مشاهدة التلفاز المحلي الذي غدا مصدرهم في معرفة أحوال البلاد، وأخذ المراسلون الجدد ينتشرون في المدن لتغطية ما يستجد في أمور الناس وأحوالهم المعيشية.
حينئذ كانت الخطوة الهامة الأولى للقناة عندما دعت الموظفين جميعاً للعودة إلى وظائفهم في سبيل تسيير شؤون الناس.

قالت المذيعة الجديدة التي تظهر أول مرة في التلفاز: لنفتح صفحة وطنية جديدة في سجل بلادنا، علينا أن نثبت لأنفسنا أولاً، ثم للآخرين ثانياً بأننا جديرون أن تشرق علينا الشمس أيضاً كبقية شعوب الدنيا.
ليس لنا غير أن نبدأ خطوتنا الأولى من جديد، ونكون ثابتين أقوياء على قدر ما أصابنا من هول وويل.

علينا أن نقدم على إهداء بعضنا بعضاً باقات الياسمين التي تنمو بكثرة في ربوع بلادنا الغالية، لنفعل شيئاً من أجل بقاء الياسمين حتى لا يهجرنا إلى الأبد، ونبقى دونه في قحط أزلي.

عند ذاك أحس الناس حاجتهم إلى شخص موثوق به يتولى إدارة شؤونهم، فكان الإعلان عبر التلفاز عن حث مَن يرى نفسه أهلاً لهذه الإدارة.
بدأت الأيام والشهور تمضي دون أن يتقدم أحد، فما كان على بعض أهل الإعلام سوى أن يطرقوا أبواب الرموز الوطنية الشهيرة وإجراء حوارات تلفزيونية وصحفية معها، وحثها لترشيح نفسها، وتشجيع الآخرين للمنافسة، لأن مصلحة الناس تقضي أن يكون هناك من يقوم بتمثيلهم في المحافل الدولية، ويصدر مراسيم وطنية تيسر ما يستجد في معاشهم.

في حوار له مع أحد الرموز قال المذيع: سيدي ألا ترى حاجة البلاد إلى شخص يدير شؤون الناس؟ نبدو بدون هذا الشخص كما لو أننا نمضي في سفينة بلا ربان.
قال: يهمني جداً أن أكون صريحاً في هذه المسألة، وهي أنني يمكن أن أدير شؤون دائرة مؤلفة من ثلاثة طوابق، أدير مئة موظف، لكن لم أرتق بمؤهلاتي وخبرتي وحنكتي وحكمتي وثقافتي وسعة أفقي إلى درجة أتولى فيها إدارة البلاد كلها، بمدنها وأحيائها وضواحيها، بمشارب الناس ومآربهم، إن مؤهلي لهو أقل من ذلك بكثير يا سيدي.

لم يكن أمام المذيع إلا أن يشكره، وبعد ذلك بعدة أيام أجرى مذيع آخر حواراً مع معارض سابق شهير فقال: إنني ألتمس من الناس تفضلهم وتكرمهم بقبول اعتذاري الشديد لأنني لا أرى في نفسي مقومات ودعائم إدارة جسيمة كهذه.
الأمر الذي بدأ يتكرر مع غالبية الضيوف وحتى بعض الضيفات اللواتي عرفن في السابق بنشاطهن السياسي ومواقفهن الوطنية المشهود لهن بها، فكنّ يقدمن اعتذارهن الشديد لأن المطلوب يفوق إمكاناتهن.

عندما يئست وسائل الإعلام عن إيجاد أو إقناع شخص يقبل تولي هذه الوظيفة، خلص إلى القول للناس: علمنا من ضيوفنا أنهم لو قبلوا بهذه الوظيفة، سوف يرتكبون أخطاء تلحق الضرر بهم أولاً، ثم بأسرهم، ثم بأقربائهم، ثم بالمقربين لهم، ثم بعامة الشعب، ثم ببقية البلاد.
إن مجرد التفكير في الأمر يبعث الفزع في قلوبهم ونحن وسائل الإعلام لم يعد أمامنا غير أن نسلم لهذه الحقيقة ونكن الاحترام لكل هؤلاء، ولا نحملهم مسؤولية سفينتنا التي تمضي بنا دون ربان لأن الربان غير المؤهل يقود السفينة إلى التهلكة كونه لا يجيد فن قيادتها، لقد بذلنا كل ما نستطيع وانتهينا إلى هذه النتيجة التي نضعها بين
أياديكم.
لكن هذا ليس كل شيء، لقد اقترح علينا ضيوفنا قيادة جماعية للبلاد، وبذلك تخف أعباء المسؤولية العظمى على كاهل شخص واحد، حيث تتقاسم هذه المجموعة مسؤولية جماعية لإدارة البلاد.

عند هذا الواقع، بدأ العمل بشكل جاد لاختيار هذه المجموعة حيث بدأت الرموز الوطنية المشهود بكفاءاتها ومواقفها العمل من أجل الوصول إلى صيغة توفيقية حتى تم الاتفاق أن تتألف هذه المجموعة من خمسة من أبناء كل مدينة، يقيمون في العاصمة ويمثلون عامة الشعب.

لكن مرة أخرى تجنبت هذه الشخصيات الوطنية اللامعة العمل ضمن هذه المجموعة وقالت إن هناك من أبناء الشعب الذين يعيشون في الظل مَن هم أكثر كفاءة منهم لتحمّل مسؤولية وطنية تاريخية كهذه، وما على الناس سوى أن ينبشوا عن هؤلاء، ويسعوا إلى إقناعهم كي يتقدموا للانضمام إلى ما أسموه: مجلس جماعة الرئاسة.
أضافت هذه الشخصيات في بيانها قائلة: هناك أبطال من أبناء الشعب قدّموا مواقف كبرى لا نملك نحن جماعة الشهرة غير أن ننحني أمامهم ، لقد أعطوا للناس في ذروة الأزمة أكثر مما أعطينا، دفعوا أبناءهم، وبيوتهم، وأموالهم، في الوقت الذي كنا نحن ننعم برغد العيش ونتنقل بين فنادق ذوات النجوم الخمس، ويدرس أبناؤنا في مدارس فائقة الجودة.

ضحوا بالغالي والنفيس أكثر مما ضحينا، بردوا أكثر مما بردنا، جاعوا أكثر مما جعنا، تألموا أكثر مما تألمنا، تفاعلوا مع مشاعرهم الوطنية أكثر مما تفاعلنا.
هؤلاء يمكنهم إدارة البلاد، وإدارتنا جميعاً، إنهم جنود الوطن المخلصين الذين يؤثرون العمل في الخفاء، وعلينا أن نسلط الأضواء عليهم كي يحمونا ويحموا البلاد حماية حقيقية.
وقال أحد المشاهير: إنني أخجل أمام نفسي أن أكون قائداً لأشخاص نبلاء وعظماء كهؤلاء، كيف أنظر في وجوههم وأنا أدرك بأنني والشعب عامة والبلاد كلها نحتاج إلى أنوار هؤلاء؟ نحتاج إلى قيادتهم لنا جميعاً حتى نطمئن على مستقبل بلادنا، ومستقبل أبناءنا وأحفادنا.

إنهم أبطال المجتمع العظماء، الدعائم والأعمدة التي تقف عليها عمارة البلاد ثابتة شامخة آمنة، مهما أعطينا لهؤلاء -ونحن الذين لا نملك شيئاً نعطيهم، وهم الذين يملكون كل شيء كي يعطونا- فإننا لا نرتقي إلى درجة عطاءاتهم اللا محدودة وقد بقوا في البلاد تحت القصف والدمار رافضين الخروج عن ديارهم، كانوا أكثر شجاعة منا، وكانوا أقل أنانية منا.

بدأت المقترحات الشعبية من المدن تتوالي على العاصمة ولجنة التقييم تستقبل هذه المقترحات، وتجري اختبارات للأشخاص الذين رُشِحوا من قبل أكبر أعداد من أبناء مدنهم، وعملت وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي حيث بدأت تدعم اللجنة بتقديم أشخاص وشهادات شعبية عن مواقفهم ومآثرهم في المجتمع.

بعد نحو ستة شهور، أعلنت وسائل الإعلام عن أسماء هؤلاء الأشخاص الذين تم الاتفاق العام عليهم، كي يديروا شأن البلاد والعباد إدارة جماعية.
بعد هذا الإعلان بثلاثة أيام، ظهرت جماعة الرئاسة هذه على شاشة التلفاز المحلية وأعلنت قبولها بهذه المهمة، ثم أدت اليمين الدستورية وفي نهاية حفل القسم أصدرت بياناً قالت: إن مهمتنا هي مهمة مؤقتة، وسوف نسعى جاهدين إلى جانب جميع المساعي الوطنية الأخرى كي

نجد الشخص الذي يقبل أن يحمل عنا هذا العبء بمفرده، ويعفينا من هذه المهمة حتى ننصرف إلى أعمالنا وتربية أبنائنا، ونلتمس منكم العذر إذا بدرت منا عيوب ونواقص لأن ما هو ملقىً على عاتقنا، يفوق ما نتمتع به من إمكانات وقدرات.

باشرت هذه الجماعة عملها كخلية النحل، وبدأت تستعين بأكبر قدر من الآراء والمقترحات ووجهات النظر، وفي إحدى اجتماعاتها دعت جماعة الرئاسة بعض أهل الأدب، والفكر، والدين، والفن، وقالت بأنها تحتاج إلى مساندتهم لها لأنهم الأكثر تغلغلاً وتحليلاً وتفكيكاً لبنية المجتمع، إنهم المشكاة التي تنظر الجماعة من خلالها إلى المجتمع كي تراه بشكل جيد.

عندما عُقِدَ اللقاء، اقترح هؤلاء على الجماعة الاستئناس بالكفاءات المحلية، ولا تكتفي بذلك، بل تمتد وتتسع لتستعين بخبرات أهل العقل والمشورة والكفاءة في سائر أنحاء العالم، واقترح البعض أن يوجّه مجلس الجماعة باسم البلاد دعوة رسمية إلى جميع الأحياء الحاصلين والحاصلات على جائزة نوبل في مختلف فروعها كي يمضوا أسبوعاً في البلاد ويقدموا ما لديهم من تصورات وأفكار ورؤى.

إضافة إلى ذلك تُوجّه دعوات إلى كبار الشخصيات الناضجة التي شغلت مناصب كبرى وهامة في مراحل سابقة وتتمتع بخبرات هائلة وتعد مراجع سياسية في العالم، إلى جانب أهل الأدب والفن والفكر والإعلام وقمم النوابغ للاستنارة بمشوراتهم، وأن يعملوا بشكل ممنهج على تقديم ميزات ومغريات هامة من أجل استقطاب النوابغ، وأهل الميزة من مختلف الحقول والمجالات الإنسانية للإقامة في ربوع البلاد ومنحها الجنسية.

اتفقت جماعة الرئاسة على هذه المقترحات، فتكاثفت الدعوات والزيارات المتبادلة بينها وبين أهل الحكمة والعقل والإدارة في العالم بشكل متواصل دام ستة شهور.

بعد ذلك اجتمعت الجماعة في لقاء مباشر عبر القناة المحلية بحضور بعض المواطنين وقالت بأنها انتهت إلى وضع اللمسات الأخيرة حول شخصية الرئيس المقبل للبلاد آخذة بالاعتبار ما استنارت به من مقترحات وآراء وتحليلات كل الذين اجتمعت بهم لهذا الغرض.

قال أحد الأعضاء: أيها المواطنون الأعزّاء، رأينا أن يتمتع رئيس بلادنا في المرحلة المقبلة بصحةٍ جيدةٍ، ثم ركن إلى صمت.
قال عضو آخر: أن يتمتع بعقلٍ سليم، ثم ركن إلى صمت.
قال عضو آخر: أن يتمتع بعينين سليمتَين، ثم ركن إلى صمت.
قال عضو آخر: أن يتمتع بنزعةٍ إنسانية، ثم ركن إلى صمت.
قال عضو آخر: أن تكون له مواقف مستقيمة مشهود لها في مجتمعه، ثم ركن إلى صمت.

أضاف عضو آخر: أن يكون ناجحاً في علاقته الزوجية، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضو آخر: أن يكون مربياً جيداً لأولاده، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضو آخر: أن يكون على علاقة سوية مع أقربائه، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضو آخر: أن يكون بسيرةٍ حسنةٍ بين جواره، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضو آخر: ألاّ تكون له خصومات في مجتمعه، ثم ركن إلى صمت.

عندئذ نهض أحد الحضور من صفوف الجمهور وقال: لو أذنتم لي يا سادتي أن أعبّر عن رأيي المتواضع، أنا الذي ثكلت بأسرتي جراء قصف على بيتي.
قال مدير اللقاء: تفضل يا أخي، بل نحن نحتاج إلى وجهة نظرك.
قال الرجل: أريد أن يُحظَر على رئيسنا المقبل التوقيع على شراء طائرات، وراجمات، ودبابات، وقنابل، وبنادق قنص، لأننا نخاف أن يشتد عوده ويستقوى بها علينا، ثم يقصفنا ويهدم بيوتنا على رؤوسنا. صارت الطائرة وهي تحلّق فوقنا تسبب الرعب لنا، لا، لا أيها السادة،

لا نريد أن نرى طائرات تحلق فوق رؤوسنا مرة أخرى، نريد أن تحلّق أسراب الحمام، بات منظر الدبّابة يبث الرعب في نفوسنا، لقد أذاقتنا الويل، هدير الطائرة بات يلسع أسماعنا كلهب النار.. نريد بلاداً بلا أسلحة، لا تلزمنا أسلحة فتّاكة أيها السادة، لا أحد سيشنّ علينا حرباً ضروساً أقسى مما ذقنا وبالها بأسلحتنا التي اشتريناها بدمائنا، ففتك بها بعضنا ببعض.

ثم استأنف الرجل يقول بحرقةٍ: ليعلم حاكمُنا الجديد أننا لا نحتاج شيئاً قدر حاجتنا ألّا تسمع أسماعُنا دوي إطلاق الرصاص، أبّا تسمع هدير الطائرات، ألّا ترى أنظارُنا جثثاً متفسّخة على منعرجات الطرق تنهشها الكلاب، ألاّ تستبد بنا روائح البارود.
ليعلم حاكمُنا الجديد أنه سيكون حاكماً على مَصَحٍّ كبير فيه مرضى يحتاجون إلى سنواتٍ من العلاج والهدوء.. يحتاجون إلى سنواتٍ من سماع الموسيقى، والقراءة، وزراعة الورود، وتربية الحمام الزاجل.
إننا لا نريد منه أموراً تفوق طاقته، ليدَعنا حاكمُنا الجديد أن نربّي الحمام كي يُزيّن السماء، ليتركنا نزرع الورود، نسمع الموسيقى، نقرأ، ننام في بيوتنا بسكينة، نريده أن يعاهدنا بأنه سيوفر لنا الكتب، وأجهزة الترفيه والتواصل الاجتماعي الحديثة.
ألّا يقطع عنا الماء، والكهرباء، والهاتف، والوقود، والطعام.
أن يتركنا نتحدث بما نرى، أن يستقر بنا إحساسٌ في ولايته لنا بأننا أحرار، نريده أن يعاهدنا قائلاً: أقسم بأنني لن أقصف بيتاً في بلادي.. أقسم بأنني لن أطلق الرصاص على مواطن أعزل.

جلس الرجل في مقعده، فاستأنف عضوٌ آخر الحديث قائلاً: أن يكون قد قرأ ما لا يقل عن مائتي كتاب من عيون الآداب العالمية في الرواية، والقصة، والشعر، والمسرح، يقدم أسماء هذه الكتب ووجهة نظره عن مضامينها، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضوٌ آخر: أن يكون قد قرأ الكتب السماوية بشكل جيد، ثم ركن صمت.
أضاف عضوٌ آخر: أن يكون قد استمع إلى مائة سيمفونية موسيقية، ثم ركن إلى صمت.

أضاف عضوٌ آخر: أن يكون حافظاً لمائة أغنية، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضوٌ آخر: أن يكون حافظاً لأسماء مائة شخصية تراثية تركت أثراً في نهوض المجتمع الإنساني، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضوٌ آخر: أن يكون حافظاً لأسماء مائة شخصية حية في بلاده مشهود لها بالنبوغ الأدبي، والفكري، والفني، ثم ركن إلى صمت.
أضاف عضوٌ آخر: ألّا يجيد استخدام المُسدّس، أو أي سلاح حربي، ثم ركن إلى صمت.

أضاف عضوٌ آخر: أن يكون على إلمام برقصات فلكلور بلاده ، ثم ركن إلى صمت.

نهض عضوٌ آخر وقال: لن نخفي شيئاً، لأن لا شيء يحق لنا أن نخفيه عنكم، عندما نجيز لأنفسنا أن نخفي عنكم أشياء، فعلينا أن نجيز لكم أيضاً كي تخفوا عنا أشياء.
لا سند لنا غيركم، ولا سند لكم غيرنا ما دمتم ارتضيتم بنا أمناء، وما دمنا قبلنا تولّي الأمانة، ثم ركن إلى صمت.

قال عضوٌ آخر: يكون ذلك بموجب اختبار يدوم ثلاثة أيام متتالية، تجريه جماعة
الرئاسة بكامل أعضائها، ثم تستأنس بآراء وتقييمات وتحليلات اللجنة التي قمنا بتشكيلها وهي مؤلّفة من عباقرة ونوابغ العالم التي وافقت على تقديم المشورة لنا، عندما نضع بين أياديها نتائج ما توصّلنا إليه بالنسبة للشخص الذي أجرينا الاختبار له، ثم بعد ذلك ننتهي إلى تقديم تقييمنا وتوصيتنا ووجهة نظرنا المجتمعة النهائية عن هذا الشخص، فيكون لكم القرار النهائي في ما ترونه مناسباً عن هذا الشخص الذي أُجمِعَ عليه ليكون رئيساً رسميّاً لبلادنا، وحارساً أميناً على ديارنا، نُسلّمه مفاتيح أبواب بلادنا، يُدخل إليها مَن يشاء، ويَمنع عنها مَن يشاء، نسلّمه كنوز الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، ثم ركن إلى صمت.

قال عضوٌ آخر: إن بلادنا عروس جميلة، تستحق أن يُعقد قرانُها على عريس كفْء بها، ثم ركن إلى صمت.
قال عضوٌ آخر: سوف نشهد جميعاً اليوم المشهود التاريخي ذاك، ثم ركن إلى صمت.
قال عضوٌ آخر: سوف ندبك جميعاً، ثم ركن إلى صمت.
قال عضوٌ آخر: سوف نغنّي جميعاً، ثم ركن إلى صمت.
قال عضوٌ آخر: سوف نصفّق جميعاً، ثم ركن إلى صمت.

عندئذ قام الجميع وغدوا يُصفّقون وهم ينشدون نشيد الوطن، والكاميرات تتسلّط على الدموع التي أخذت تنهمر من مقلهم، متدحرجة على خدودهم كحبات لؤلؤ.

* * *

دخلت سهدة إلى ألماظ وقالت له: أستاذ هناك أشخاص ينتظرون في مكتبي، هل أدخلهم؟
قال: هل يريدون عملاً معيناً؟
قالت: قالوا بأنهم يريدون لقاءك.
أدخليهم، قالها وترك الكرسي الذي يجلس عليه خلف المكتب متقدماً لاستقبالهم.
دخل خمسة رجال، تفحّصوا أناقة مكتبه كما لو أنهم يرغبون في شرائه، كانت ثمة أنغام سيمفونية هادئة تنبعث من مكان لم يعرفوا مصدره.
أحسّوا براحةٍ كما لو أنهم في متحف، عندئذ دخلت إليهم سهدة حاملة طبق ضيافة فاخرة من سكاكر وراحة وشوكولا، ثم خرجت لتعود بعد قليل حاملة إليهم كاسات عصير البرتقال.

قال أحدهم وهو يعدل في جلوسه: نحن يا سيدي اللجنة المؤلفة من خمسة أشخاص الذين يُمثّلون المدينة ويديرون شؤون البلاد ضمن مجلس جماعة الرئاسة.
رحّب ألماظ بهم وأثنى على جهودهم.
قال شخصٌ آخر: اتفقنا أن تقدم كل مدينة أسماء ثلاثة أشخاص من أبنائها المشهود لهم حتى يتم ترشيحهم لرئاسة البلاد.
قال ألماظ: خطوة مباركة.. أحسنتم
قال شخص آخر: نحن نحتاج إلى مؤازرتك يا سيدي.
قال: أنا وإمكاناتي تحت أمركم يا سادتي.

قال أحدهم: استأنسنا بآراء مختلف شرائح مجتمعنا لإعانتنا على اختيار الأشخاص الثلاثة، ولا نخفيك أن الأصوات التي اقترحتك كانت متقدمة، فكان القرار أن نأتي إليك ونطلب منك بشكل رسمي أن تكون أحد مرشحي مدينتنا الثلاثة لتولي أمر رئاسة بلادنا الحبيبة.

أحس ألماظ بشيءٍ من الإرباك، انتظروا ما سيبدر منه دون أن يفوه بكلمة واحدة متمتماً في سره: عندما لا تعلم ما ستقول، فمن الأفضل أن تصمت ريثما تعلم ما ستقول.
بعد سكونٍ دام نحو نصف ساعة وهم في حالة انتظار لما سيقول أجاب:
هل تأذنون لي كي أستشير أهلي؟
قالوا: هذا حقك يا سيدي.
قال: غداً في مثل هذا الوقت أكون بانتظاركم هنا.
عندها نهض الرجال وودّعوه على موعد لقائه غداً.

في المساء عندما عاد ألماظ من عمله إلى البيت، أخبر زوجته كي تهيئ نفسها ليتحدثا عن أمرٍ مصيريٍ هام.
عندما نام الأولاد، أحضرت تُقى بعض الفاكهة والمُكسّرات والشراب وجلست إلى جانبه.
بعد نحو ساعة من الجلوس، أخبرها عن مطلب الرجال الخمسة الذين زاروه اليوم في مكتبه، وأنهم سيعودون غداً كي يعرفوا قراره.
ارتعدت أوصالها، علاها اصفرارٌ قاتلةً وهي ترتجف بكل أعضائها: يا رجل، أتريد أن تهدم كل ما بنيناه يوماً بعد يوم؟ مالَنا وما لِوَجَعِ رأسٍ كهذا؟ ترانا نرفل في رَغَد العَيش بأمان، نربّي أولادنا كما نشاء، الناس جميعاً يحترموننا، لا نؤذي أحداً ولا أحد يؤذينا، لا نكذب على أحد، ولا أحد يكذب علينا.

ثم أردفت بريقها الجاف: غداً سوف يُصبح لنا أعداء، يشمت بنا الشامتون، سوف تضطر للتوقيع على أحكام السجن والإعدام، لن يكون بوسعك أن تكون في منأى عن الظلم، ألم تسمع المثل القائل: /كلُ مَن حَكم، ظلم/، سوف تكون نهايتنا وخيمة
يا ألماظ.

ثم بدأت تذكر أسماء الحُكّام الذين انتهوا نهايات مزرية، لحق الأذى نساءهم، أولادهم، أحفادهم، أقرباءهم، وحتى أبناء قراهم: لقد فتكوا ببعضهم البعض يا ألماظ، غداً عندما تصبح حاكماً، ستغدو رجلاً لا نخبره ولا يخبرنا، ستذبل مزاياك الحميدة، وتظهر لك أنياب.
إن سألتني عن أهلك مغامرة يمكن أن يقوم بها المرء في حياته، قلت لك دون أي تردد: هي أن يتولّى مقاليد الحكم في بلادنا.
ما نظرتُ يوماً إلى حاكمٍ من حُكّام بلادنا إلا وشفقتُ به، إنه ينفش جسده كما لو أنه طاووس، ينفش جسده محفوفاً بالحرّاس والمرافقين كما لو أن على رأسه الطير، والحاشية تواري ابتساماتها المزدرية التي لا تتوارى إلّا عن عينٍ غافلةٍ وهي توجّه نظراتها إلى الذَيل الذي ألصقته في مؤخرته.

إنها كالكلاب المسعورة تفعل أي شيء من أجل أن يبقى واجهةً تتوارى خلفها، لذلك أصدّق أن أحدهم إذا خُيّرَ بين موت أحد أبنائه، أو موت هذا الرجل المنفوش، سيؤثر موت ابنه على موته، لأن موت ابنه لا يعني موت جميع أخوته وأبوَيهم، بَيدَ أنّ موت الرجل المنفوش يعني موت جميع الأبناء وأبوَيهم، لكن عليه أن يبقى محافظاً على ذيله، وفي اللحظة التي تنتابه حساسية ولو خفيَّفة من وجود الذيل، فسوف تؤثر الحاشية موته لأن الحساسية بوجود الذَيل مقدّمة للعافية، ولزوال الحاشية جميعاً.

إنهم يَقدِمونَ على فعل أي شيءٍ من أجل أن يُحافظوا على هيبة هذا الرجل المنفوش، وكلما ازداد هيبةً أمام الناس، ازدادوا تمكّناً من الاستيلاء على خيرات البلاد، وكلما ازداد وهناً، حال ذلك دون سعة الاستيلاء.
لذلك يُعظّمون هذا المنفوش ويصوّرونه كما لو أنه سليل الآلهة وهم يشمّون الروائح النتنة التي تُصدرها مؤخرته إلى أنوفهم.

عندئذ وهو ينظر إلى نفوشه في مستنقعٍ كهذا، لا يتوانى كي يتحول إلى لصٍ يسطو على ممتلكات الناس ويجعلَ بها موطئ قدمٍ له ولأسرته في

بلادٍ أخرى، وهذا خير مؤشرٍ على حالة الاضطراب التي يعيش في تيه مدارها.

تتّحدثُ بنبراتٍ واثقةٍ قويّةٍ، وكأنها تُفجّر بركاناً كان مخزوناً في عمقها حتى أن إن ألماظ لم يشأ أن يقاطعها رأفة بها، كي تشعر براحةٍ بعد أن تكون قد قالت كل ما ترغب في قوله.
في تلك اللحظات وهو يستمع إليها، كم أحس بقيمة أن يكون الإنسان حرّاً ، ولا يكون خانعاً، كل الأمراض النفسية والعصبية، والعقد الاجتماعية يسببها الخنوع والكبت والرضوخ للأمر الواقع.

إنه الخوف الذي يُغيّر مصير الإنسان، ويُغيّر سلوكه، يُغيّر منهاج حياته برمّتها.
قالت تُقى بذات النبرة وهي توجّه نظراتها إليه: الحاكم الذي يحب بلاده وشعب بلاده، يكون قدوة لاستثمار أمواله في بلاده، يبذل قصارى جهده كي يستقطب أموال الآخرين لاستثمارها في ربوع هذه البلاد، والحاكم الذي يمقت بلاده وشعب بلاده، يكون قدوة لسرقة أموال بلاده وتهريبها إلى الخارج في أرصدة سرية.

إنها حالة من اللا ثقة بينه وبين شعبه، بين قدَمَيه وبين تراب البلاد التي يتولى دفّة الحكم فيها، إنه لا يدري في أية لحظةٍ سوف تلفظه البلاد كمن يقف على فوهة
بركان.
لا أدري يا ألماظ أي ازدهارٍ تتوخّاه البلاد من حاكمٍ كهذا، ومن حاشيةٍ تستخف به كهذه؟
إنه يتحوّل إلى كائنٍ مسعورٍ مريضٍ بتضخيم أمواله التي لا يترك منها درهماً في بلاده، حتى إن أرقام ثروته تجعل الشعب كله في رفاه وهو يتلذذ بجوع وفاقة وذل الشعب الذي يتلقى مساعدات غذائية على سبيل الصدقة والعطف الإنساني من تلك الدول التي تستثمر أموال حاكمه، ينظر إلى أفواج الناس تتراكم لتلتقي المعونات الغذائية الخيرية.

حينها لا يتوانى أن يتطاول إلى هذه المعونات أيضاً ليستولي عليها كي يبيعها، ويعيدها إلى تلك الدول على شكل أموالٍ كي يزداد بها رصيده، حينها ترى بعض هذه الجمعيات الخيرية أنها لا تأمَن على هذه المعونات في أيدي سلطات البلاد، بل تكمل معروفها وتأتي برفقة هذه المعونات الإنسانية الإنمائية كي توزعها يداً بيد للفقير الذي يتضوّر جوعاً ويقتات من قمامة حاشية الحاكم وحاشية حاشيته، وحاشية حاشية حاشيته.

الحاكم المفسد من شأنه أن يفسد شعباً بأكمله، والحاكم الصالح من شأنه أن يصلح شعباً بأكمله.
عندما أنظر إلى ما انتهى به أمر حاكم أمنه شعبه على بلاد بأكملها وهو لا يأمن شعبه على بضعة دراهم، لا أملك إلا أن أشفق بما آلت إليه حال هذا الحاكم، وحال هذا الشعب، وحال هذه البلاد.
حينها لا تملك الحاشية إلا أن تقتدي به، فيتحوَّل نائبه إلى تاجر، يتحوَّل الوزير إلى تاجر، يتحوَّل السفير إلى تاجر، يتحوَّل الجنرال إلى تاجر، يتحوَّل مدير المؤسسة إلى تاجر، يتحوَّل المحافظ إلى تاجر، يتحوَّل رئيس المخفر إلى تاجر، يتحوَّل ضابط الأمن إلى تاجر، حتى شرطي السير، فإنه يقتدي بمَن هو أعلى منه، فيتحوَّل إلى تاجر.

كل واحد من هؤلاء يرى منفذاً لإخراج ثرواته والتأمين عليها بعيداً عن بلاده.
صمتت قليلاً، ثم أردفت تقول وهي ماتزال تركّز نظراتها في وجهه:
هؤلاء الأشخاص الخمسة يحملون لبيتنا ناراً يا ألماظ، يُهدّدون أمن عائلتنا الصغيرة، أرجوك أن تتجنّبهم وتتجنّب نارهم التي سوف تجعلنا حطباً لها.
اعتذرْ منهم، لينصرفوا عنّا مع نارهم التي يحملونها، إنهم لا يلزموننا، ونحن لا نلزمهم.
دعنا نعش حياتنا المستقرة بعيداً عن تلك الأجواء المحفوفة بالمخاطر التي سوف تحيطنا من كل حدب وصوب.

لبث ألماظ في حالة إصغاءٍ حتى خفتت نبراتُها، وأحسّت بشيء من الارتياح.
بعد ذلك ساد صمتٌ دام نحو ساعة دون أن تصدر أية نبرة صوت، عندها اتجها إلى السرير واستسلما لنومٍ تحت سياط نعاسٍ شديد.
في الصباح عندما استيقظ ألماظ، أحسَّ بنشاط، وكأن ما قالته تُقى ليلة البارحة كان بمثابة منشّطاتٍ دفعت إلى بَدَنه ونفسه روح الحيوية واللياقة.
بعد تناول الفطور، اتجه إلى مشغله، ولبث جالساً حتى طرقت سهدة الباب، وأخبرته بحضور الرجال الخمسة.
استقبلهم بترحابٍ، وعندما سألوه عن قراره، قال بشكل مباشر دون أية مقدّمات، أو أية نبرة تردد: أرجو أن تقبلوا اعتذاري الشديد يا سادتي، لأن حرمنا المصون تعترض على أمر كهذا.